مسعد أبو فجر

طلعة البدن

رواية

دار ميريت
القاهرة 2007

طلعة البدن

طلعت البدن

رواية

مسعد أبو فجر

الطبعة الأولى 2007.

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: **أحمد اللباد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2006/17456**

الترقيم الدولي: **977-351-328-9**

أتلمس تقاليد بارزة فيَّ
قبل الزمان والمكان والحياة والوجود ..

فرناندو بيسوا



I

كنــتُ ماراً بسيارتي، على الطريق الرئيسيّ، الذي يَحُول بين الجــبل الشــاهق، وابتلاع نويبع. نظرت في المرآة؛ فرأيت الشج كالختم على جبهتي. زارت أمي الفقير، حين كنت في بطنها، ولمّا رآها مقبلة، قال مبتسمًا: جاكي ربيع.. ولكن أمي، التي عندها من الأولاد ما يسد عين الشمس، لم يشغلها الاسم، أو لنقل إنها أرادت، أن تضرب عصفورين بحجر، أن تسميني ربيع كما بشرها الشيخ، وأن تُــنفذ الوصايا. إذ يقال أن المرأة التي تلد ذكرًا، تُسميه (لبّاد) ثم تنتظر حتى يأتي أول عيد، فتختار له الاسم الذي تريده.

أسمتني لبّاد.. وفي صباح يوم العيد، كان عيد أضحى، نفذت بشارة الشيخ، وأسمتني ربيع. ولمّا ولدت أخي بعدى ميتا، أدركت الخطأ الذي وقعت فيه. ملأت (السبتة) سكرا وشايا، وما تيسر من طوفـــي، وأسرعت نادمة إلي الفقير. مكثت في بيته ثلاثة أيام. في اللــيلة الثانية، لفتت نظرها واحدة من زوجاته، إلى أنه أعلم منها بالوصايا، وفي الثالثة سَمح لها بالدخول إلى خلوته.

حيـــن رآنـــي في حضنها، أشار نحوي بإصبعه السبابة: هذا ربـــيع.. ولكي لا يخطف ملك الموت أخوتي، الذين ستلدهم بعدي، وصف لها الوصفة، التي تركت الشج في جبهتي حتى اليوم.

بُعيد الفجر، وفي الوقت، اللي ما تعرف فيه الكلب من الذيب، أيقظتني.. أحكمت ربط الغترة على رأسي، وتناولتني من ذراعي، هابطــة إلــى القرية. تسللنا بين البيوت، حتى وصلنا بيتا له باب خشــبي قديــم، على أحد ألواحه أثر كف من الدم. أوقفتني قدامه، وكأنهــا تــريد أن تقرعه، ثم رفعت غترتي عن جبهتي. أمسكت برأسي، وبغتة لطمت جبهتي بالباب، صرختُ.. تحسستْ وجهي، ولمّــا تــأكدتْ أن الــدم سال من قورتي، ارتدتْ عائدة، وتركتْ وراءها نداءا عاليا، منطلقا من داخل الدار: مين؟

مفزوعاً كففتُ عن تلمس جبهتي، حين رأيت الدخان يهب من بــوز الســيارة. أوقفــتها وفتحت الكبوت بسرعة. دلقتُ ماءً على الردياتــير، وانتظرت حتى تبرد. عدتُ إلى مقعدي، أدرتُ المفتاح فكركــرتْ السيارة قبل أن يئز موتورها، كانت رجلي اليمنى على الدواســة، واليســرى مدلاة على الإسفلت، أحكها لأجفف العرق، الــذي أحســه متكلســاً على باطن قدمي، حين رأيته صاعدًا من القــرية، يحمل كيسين بلاستيكيين، سألته عن أحواله، في محاولة لتزييــت مقابلة الصدفة هذه، ورغم أن عساف كان يحكي سعيداً، بــأن له كامبا في راس الشيطان، واصفا الطريق إليه، إلا أني لم أهــتم بحكــيه، فالمكان الذي يصفه وعر، ولو فكرت في زيارته، سأضــطر لتوقــيف سيارتي على الأسفلت، والوصول إليه راكبا جملا.

مللتُ العمل بائعا متجولا؛ فقررتُ أن أجرب حظي في صيد الصقور، كنتُ جالسا، في سفح هضبة التيه، أراقب الطيور، رأيتُ

طائر أم غرير، ألقيت نحوه بحجر، طار قليلا، ثم عاد يتقافز على رجْـل واحدة، تركته وقلبتُ نظري في الفراغ المحيط بي، رأيتُ البدويّ قادما وهي معه، الكاميرا التي تتدلى على صدرها، جعلتني أعـتقد أنهـا سـائحة. ولكني لم أبذل كثيرَ جهد، حتى تبينت أن غاليـت، تطـوف الصحراء الممتدة على مرمى البصر، تمارس هوايتها في التصوير.

حيـن أحسّ الدليل برغبتي فيها، قبَض إيجاره وتخلص منها، كأنـه يرمي حملا ثقيلا من على ظهره، وقبل أن يمضي مبتعداً، فقتُ على الحيص بيص الذي أوقعتُ نفسي فيه، هممت بأن أنادى علـيه، لـولا رغبتـي المحمومة فيها، فوجودها في هذا المكان ممـنوع، ولـيس بإمكانـي أخذها إلى مضارب قبيلتي، سيجلدني أقربائي بألسنتهم!!

كـرت فـي رأسي محطات كثيرة جبنت فيها. أدركت كم تغلغـل الجبـن في نفسي، فرغم معرفتي بسياسة "اضرب مسعود يخرا مبارك" إلا أنني دائما أختار أن أظلّ مسعودا. مثلا لم أشارك أقربائـي، يـوم سـدوا بأسـلحتهم الطـريق إلى معبر العوجي، وتحججـت بمشـغولياتي، ولو فعلت لما آذاني ذلك اليوم الضابط، حين أوقفني في القرية القريبة من مضارب قبيلتنا.

ومشـاهد الجبـن تكـر فـي رأسي، كمسبحة بين أصابع متصـوف، لمـع عسـاف فـي ذهنـي، هذا هو يا ولد يا ربيع: الكامب(...) ولأن عساف سيطل برأسه في محطات كثيرة من هذا السرد، فسأقص نتفا من أخباره:

جـاءت للفقـير بنـت مجنونة، وبعد أربعين يوما شُفيتْ؛ فخـيرها أن تـبقى عـنده أو تذهب لأهلها، اختارت البقاء عنده، واشـترطت أن يكون وجودها ذا صفة. فتزوجها.. وبعد أقل من سـنة هاجمـتها آلام المخاض، وهى سارحة بغنمها في المرعى، حاولـت العودة إلى بيتها.. المشي منهك، والآلام تصّاعد وتيرتها، لـم تسـتطع أن تكمل، كانت حذاء النبقة، هرولت إليها، أمسكت بجذعها، وباعدت بين ساقيها، فاندلق من بينهما عساف.

بعـد أكـثر مـن عشـرين عاما، سيعمل عساف طاهيا في الكامـبات المتـناثرة علـى شاطئ نويبع، ولن يكون سعيدا بعمله هـناك.. فـيما بعـد أخبرني " كنت أتردد في فترات راحتي هنا، تعرفـت علـى توماس، أتينا مرة، انبهر بالمكان، وأشار عليّ أن نتخذ موقعا صغيرا، نستريح فيه، حين نأتي في المرات القادمة".

بهـدوء أخـذت الحياة تدب في المكان، تحول إلى كامب له زبائـن مـن جميع أنحاء العالم، كان معظمهم من عبدة الشيطان، أتـباع كنيسة د. فاوست، والباقون كالمجانين: فنانون، ورسامون وموسـيقيون ونحاتون، يقضون فترات طويلة من السنة، دون أن يلمـس أجسـادهم، غـير الماء المالح، لحظة يرمون أنفسهم في البحر.

فاجأنـي مـنظرهم في البدء، كأنهم هبطوا من كوكب بدائي، بشـعورهم الطويلـة، المرخـية بين أكتافهم، وملابسهم المقطعة، يتسكعون طوال النهار، بين الجبال وعلى الشاطئ، ثم يعودون في

المســـاء، يرقصون، يأكلون ويشربون .... ولكن ما فاجأني أكثر، هو وجود عودة بينهم.

مـــن سنوات قابلته صدفة في الجامعة، كان يقدم أوراق قبوله فـــي قسم الفلسفة، و كنت أتسلم شهادتي من قسم التاريخ، لاحظت أنه تغير، صار طويلا جاوز **180** سنتمترا، وجهه بدا أجمل منه حين كان طفلا، وشعرت أنه لم يعد ذلك الولد الضعيف، الذي كان الأولاد يؤذونه صغيرا. نويت أن أفعل ما يذكّره بي، خاصة وأنني سأقضي يوما آخر في الجامعة، لأتمكن من تسلم أوراق تخرجي.

ذهبـــنا إلـــى المتحف المصري، وقف طويلا أمام اللوحتين **111**و **112** يظهـــر في الأولى، الملك سنفرو قابضا بيسراه على ناصـــية بـــدوي جاث أمامه، وبيده اليمنى هراوة لضربه، وحول الصـــورة كـــتابة مفادها "سنفرو الإله العظيم فاتح البلدان وواهب القـــوة والثـــبات وراحـــة الـــبال إلى الأبد" وفي اللوحة الأخرى، صورته في ثلاث هيئات، واحدة منها لابسا تاج مصر، وقد قبض بيمناه على عصا لضرب البدوي. امتعض عودة، فغادرنا المتحف ســـريعا، وقضـــينا نهارنا، وجزءًا من الليل نتمشى في الشوارع، صـــامتين نـــتفرج ع البنات، ونتأمل الفاترينات، ثم استرحنا على القهوة، التي يجلس فيها حميد، عرفته على حميد وأوصيته به.

ورغم ذلك، لاحظت أنه يشيح عينيه، كلما التقتا بعينيّ، هل كان هذا بسبب إيذاء أقربائي له حين كان صغيرا؟! ربما.. لكن أنا لـــم أؤذه، كنـــت أكبره بسنوات، إلا أني لم أكن أبعد أقربائي عنه، حين كانوا يسخرون منه، ويعايرونه بجدته الفلاحة.

***

فـــي رأســـي كلام عن العوامرة، عائلة عودة، سمعته كثيرا بـــروايات مختلفة، سأختار منها الرواية الآتية: تجاوز جدهم المائة لمّا ماتت عجوزه، صمم أن لا يقابل ربه أعزب، وطلب من أبنائه أن يبحـــثوا له عـــن عروس بكر، لم يجدوا قبائلية ترضى الزواج بالشـــيخ المســـن، ولأنهم خافوا غضبه، أخذوا له ابنة فلاح، كانت القبيلة قد استأجرته، ليدهن إبلها من الجرب.

في صباح اليوم الثاني، وبعد أن دخل بعروسه، وجدوه ميتا، عـــادت العـــروس إلـــى أهلها، ظنوا أن الشايب لم يقربها؛ فزفت لعـــريس جديد، وبعد تسعة شهور وضعت ولدا. لاحظ الناس إيذاء زوج أمـــه له، كـــتفه يوما أمام الديوان لشيء لا يستحق؛ فتدخل واحـــد مـــن أولاد الشايب، قال الرجل: ولدي وأنا حر فيه. ما هو ولـــدك، ولـــد أبونا. احتكموا للنسابة، وصلوه بُعيد مغيب الشمس، فأبقـــاهم للصـــباح. بعد أن فطروا وشربوا القهوة، قال كل فريق حجـــته، نظـــر الرجل للغلام مليا ثم قال: اذهب للوادي، تلقى غنم وراها بنت سارحة، هات خروف منها وتعال.

جـــاء الصـــبي بالخـــروف يحملـــه على كتفيه؛ فذبح النسابة الخـــروف، وقـــبل أن يسلخه، جاءت ابنته تبكي خروفا سطا غلام علـــيه، قـــال الأب: صفيه لنا. فأنشدت قصيدة طويلة تصفه فيها، ختمـــتها بقولهـــا: هاري ولد هارية، أبوه شايب وأمه جارية. فقال النسابة: حكم اللي اختلفتو فيه سمعتوه بآذانكوا.

عـــادوا بأخيهم، الذي خلّف عائلة تشبه باقي أبناء القبيلة، عدا عيونهم الزرقاء، التي يصفها الناس بأنها تشبه عيون قطة، مختبئة في سياج صبر.

***

اشـــترى له جـــده كبرًا جديداً، لبسه عودة واتجه سعيداً إلى مربع الأولاد. سخروا منه ومن كبره، فلم يقربه عودة بعدها أبدا. ســـأله جـــده: وين كبرك.أجاب وهو يبكي الأولاد يعايرونني. قال الجـــد والغضـــب علـــى ملامـــح وجهه: حينما يعايرونك قل لهم (جربن).

انسحب عودة متوجها إلي الأولاد، منتظرا اللحظة التي يقول لـــه فـــيها واحد منهم يا ابن الفلاحة. وما أن أقبل لاهثا حتى ناداه أحدهـــم: ليش بتلهث يا ولد الفلاحة؟.أنا لست ولد فلاحة .. أنتم.. ثـــم اندفع بكل قواه يردد جربن.. جربن.. جر.. وقبل أن يكمل، كان مطروحا على الأرض، والركلات تأتيه من كل صوب، حتى ســـال دمـــه؛ فصرخوا في وجهه: امش يا ابن الفلاحة. قال عودة وهو ينفض التراب عن ثوبه المقدود: إن كنتم ارجال تعالوا واحد واحد. ومسح ببطن يده الدم من على فمه. قال أصغر الأولاد الذي كان أقساهم: عيلتك فلاحين، طيزهم حمرا مثلك .

لم يتبين عودة بقية ما قاله بالضبط، انسحب مخلفا وراءه بقايا قميصـــه. تســـاءل جـــده فـــزعا: وش اللي صار لك؟. الأولاد.. ضربوني لما قلت لهم جربن.. وعايروني بجدتي.

أما أمه؛ فتظن أن غياب أبيه هو ما يغري الأولاد بالاستهانة بـــه؛ فـــتزعم له أن أباه كان في الجيش حينما قامت الحرب، وهو هناك في مصر وحين تنتصر سيعود. كل القبيلة تعرف أن الأمل في عودة أبيه ضعيف، والأم كذلك، ولكنها صدقت نفسها من كثرة ما رددت على أذن عودة، أنه سيعود. آخر مرة رأته حين امتلأت السماء بالدخان، وصار أزيز الطائرات المغيرة مرعبا، قفز سلمان وفك قيد الجمل البارك أمام بيت الشعر، وضع امرأته الحامل على ســنامه، وفـــي حضــنها أصغر البنات، بينما علق البنت الكبيرة وراءهـــا وشبك يديها بظهر أمها، لسع الجمل بمطرق اللوز على مؤخـــرته، أمرها أن تسبقه إلى البرص، وضع كيس الدقيق على ظهـــره، وطلب من أكبر بناته، أن تسوق وراءه العنزتين، وتمسك الإبـــريق فـــي يدها. سايرت البنت الصغيرة أوامر الأب المنطلقة كالرصاص، وأدتها بسرعة وهو يشجعها : هاه.. يا بنت أبوكي.

انطلـــق ســلمان إثـــر امرأته وبناتها الى البرص، بينما كان الشايب تائها، بين ما سمع من الجنود المصريين، المنتشرة خيامهم بين مضارب القبيلة وحواليها، أن الذي في السماء مناورات، وبين صراخ سلمان المتوالي، المنصب في أذنيه، بين اللحظة والأخرى: هـــذه جهـــنم الحمـــرا.. عليك بالبرص يايباه. التقط غليونه وعلق الإبـــريق على ظهره بعصاه. نظر إلى السماء الممتلئة دخانا فوق رأســه، جال البر بعينيه، لاحظ ربكة الجنود، عرف أنها الحرب، ولكـــنه لـــم يـــر قتالا. ناداه الجنود: متخفش يا شيخ العرب، دي مناورات، إحنا بناور.

فـــي الطريق رأى دبابات تحمل الأعلام العراقية، تسير حذاء البحر متجهة جنوبا، عرف أنها دبابات إسرائيل، حفر حفرة تحت عـــاذرة، وكمـــن فيها. في المساء خرج من مخبئه، وسار محاذرا حتى ولج البرص. كان البرص بكثبانه الرملية العالية التي تفصل بين البحر والصحراء، تنساب منه حركة محاذرة، صار ينتقل من كثيب إلى كثيب، وصله صوت جلبة، فأحس بالأمان.

ســـمع نحـــنحة رجل، توجه نحوه، وسأله عن سلمان، ولأن الرجل لم يعرف مكانه، طلب منه أن ينام جواره، والصبح يصير خـــير يـــا أبو سلمان. شكره وواصل بحثه. ظل يسأل حتى وجده مقـــيما في مكان ناءٍ، متخذا من بطن كثيب مناما له ولبناته. أزاح الشـــايب وجه الترابِ المضمخ بالندى، وضب في الرمل قرموسا، وكـــوّم في طرفه وسادة، وضع فوقها حذاءه، ثم تمدد ملتفاً بعباءته ونام.

مـــع انـــبلاج الفجر، أيقظه الصوت المزلزل، قفز من نومه، الغبار يملأ المكان ويعيق الرؤية، رغم لمعان الأرض تحت ضوء القمـــر، رأى سلمان، يتحسس بناته، ولما تأكد من سلامتهن، هرع للبعـــير، وجـــده مرمـــيا على جانبه والزبد حول شدقيه، وحبيبات الرمل تبتلع الدم المنداح من بطنه، تيقن من موته، نظر إلى شوال الدقـــيق المنـــبعج متألما، عاد ليشعل نارا، نهره الشايب: لا توقد النار.

فـــي الصباح علا صراخ البنات، فقامت الزوجة تبحث عما يأكلنه، نهرها سلمان: عودي يا مرة إلى بناتك وانملي بينهن. اتجه

إلـــى الـــبر، حاولتْ أن ترده، رفع يده في وجهها: ابلعي لسانك يا مرة.

جلـــس بجـــوار سكة الحديد، رمق الطريق قبل أن يجتازه، انطلـــق جهـــة البيـــت، الـــذي ترك فيه برميل الدقيق، رآه مقلوبا والدقـــيق يغطـــى الرمل، نظر إلى خيمة الجنود وجدها محترقة، ســـيارة التعييـــن مقلوبة بجوارها، وعلب البازلاء وأكياس الأرز والعدس ملقاة على الرمل، جلس على ركبتيه، مسح المكان بعينيه، تـــأكد من خلوه، قفز بسرعة، التقط كيس أرز وعلبة بازلاء وفرّ، رأى الجيـــب آتـــيا نحـــوه، أرتد سريعا، حاول أن يختبىء خلف السيارة، سمع دوي الرصاص، أحس بسخونة تنساب على ظهره.

***

كَـــثُر الحديـــث حـــول ســـلمان، وصار الكل يدلي بدلوه في الموضـــوع، الـــبعض قـــال اليهود قبضوا عليه، واقتادوه أسيرا، وسيســـلمونه إلى مصر، مثلما فعلوا مع أولئك الذين قبضوا عليهم في حرب **56**، والبعض الأخر يقول، إن اليهود رأوه تحت إحدى العربات؛ فاردوه قتيلا، اعتقادا منهم بأنه كان يدمر عربات الجيش المصري التي تركها وراءه في العراء، ولكن آخرين يقولون، أنه قابل مجموعة من الجنود المصريين، الذين طلبوا منه أن يعبر بهم الصـــحراء حتى القنال، وبأنه قد ذهب معهم، البعض يرد عليهم: كـــيف يذهب معهم، ويترك بناته جائعات في البرص.. لا.. لا.. هـــذا كـــلام مـــاهو مضـــبوط. حتى لو طلب منه بعض الجنود

توصـــيلهم، فســـيكتفى بـــتعريفهم الـــدرب، وبعض الوصايا التي تساعدهم على معرفة الشمال من الجنوب ثم يعود لبناته.

تـــوارى خـــبر غياب سلمان، بعد كثرة الذين فُقِدوا أو وجِدوا ميتيـــن علـــى حافـــة البرص. دار الكلام حول اليهود، وبأنهم لن يســـتمروا طويـــلا، وستجبرهم هيئة الأمم على الانسحاب، مثلما انسحبوا بعد حرب **56**.

رمت طائرة أوراقا، على بعض المتجمعين في البرص. خاف الـــناس مـــن لمس الورق، وأوصوا بعضهم بعضا بعدم الاقتراب مـــنه، وتردد بينهم، أن واحدة من الورق وقعت، وهي نازلة، على ورك أبـــو دهيش؛ فصارت ورك الرجل قطعة حمراء، ثم تقشرت عـــن لون اسود شديد السواد، وصارت تتقيح حتى بان العظم، ولم تشفَ إلا حين غسلوها ببول الجمل. تحاشى الناس لمس الأوراق، وإن عـــثرت قدم أحدهم بواحدة، عاد مسرعا ليغتسل ببول الجمل، لـــذا فقـــد صـــاروا يربطون القرب، على أفخاذ الإبل لتبول فيها، وصار الإبريق من بول الإبل، يقايض بقدح من الدقيق.

كفـــت الطائرة عن رمي الورق، واكتفت بأن جالت صباحا، مقـــتربة من الأرض، حتى جفلت الإبل، وارتبكت الماعز، وعلا ثغاء الجديان؛ فعادت للارتفاع قليلا، ثم انطلق منها صوت، ينادي عـــبر مـــيكرفون، طالبا من الناس العودة إلى بيوتهم. تلكأ الناس وصـــاروا يذكرون بعضهم، بأن اليهود لن تطول أيامهم في سينا، وسيرحلون بعد شهور، مثلما رحلوا في **56** وأن من يطيع أوامر اليهود، سيقطع المصريون رقبته حينما يعودون. ولم ينس البعض

أن يُذكّــر بالخوازيق، التي أجلس المصريون عليها، كل من دبر حاله مع اليهود، على إثر حرب **56**.

عادت الطائرة من جديد، صباح اليوم التالي، تطالبهم بالعودة إلـــى بيوتهم، وتقول إنها سوف ترش البرص، بعد ثلاثة أيام بمبيد ســـام، لن يبقي على وجه الأرض حيّا، وأضاف الصوت المنطلق من الميكرفون: لقد أعذر من أنذر.

***

ثمـــة ما تجاوزناه، فغاليت حين وصلنا الكامب، رسمت خطا رفــيعا لعلاقتــنا، وقفتُ في منتصفه تماما، ثم وضعتنا أنا وعودة علـــى طرفـــي الخط، فصارت علاقتنا: أتقدمُ نحوها فترًا؛ فتقترب مـــن عـــودة مـــثله، وســـنجدها في سطور مقبلة، وقد ارتمت في حضـــنه، وتركتنـــي مترنحا على منتصف الخط. في هذه اللحظة، بالضبط، انقضَّ عليّ عساف: وين سيارتك؟ ع الشارع عند سالم. رديت. بعدها وصف لي وصفة أراحتني.

أقـــام ســـالم خيمته عند مدخل الكامب، ع الشارع الرئيسي، وبإبلـــه صـــار يخدم زواره. كيف؟. تكون سياراتهم عند بيته في مأمن، ثم يوصلهم إلى الكامب على الجمال، ويظل واحد من الإبل دومـــاً مـــربوطاً عـــند الكامب. وصفة عساف لي كانت أن أعمل رحـــلات خلـــوية للسياح بسيارتي، يتمددون عراة في صندوقها، ونذهب إلى أحد الوديان، وعلى ضوء النجوم، نشعل النار، ثم نعد الشاي وقرص الملة. قال عساف: كل رحلة خمسة سياح أو أكثر، تأخذ عشرين جنيهاً من كل واحد، وفي الأسبوع رحلتين أو ثلاث.

ثـم غمز بعينه: دبر حالك بشوية طرينة. المايه جنيه. تربح مايه مثلها. ثم حسم الموضوع، من وجهة نظره، حين قال وهو يعطيني ظهره: لا تزعلك هالحمرا.. الحُمر كثار.

غاليت في رأي عساف حمراء، ولا أعرف كيف تنظر غاليت إلـى عساف؟ الفكرة التي تتبنى عليها العلاقة بين البدو والسياح فكـرة بدائـية؛ فالأجنبـيات من وجهة نظر البدو لحم أحمر. هم يجيـئون للغوص والبانغو والرحلات البدوية، ويتعاملون مع البدو ككائـنات ما قبل التاريخ، وقد يغري الأجنبية ممارسة الجنس مع بدائـي، لا تعرف أنه مارس العادة السرية ونيك الحمير منذ صار له أربعة عشر عاما. لذلك لم يكن يؤلمني ابتعاد غاليت عني، وإن كنـت قـد شعرت ببعض الغيرة من عودة، فالعرض الذي قدمه عساف داوى تلك الغيرة وإن لم يمحها تماما.

II

صـــمت قاهـــر ذلك الذي طوى عودة، فتضاءل كحبة رمل، علـــى الجـــبل الذي يستكين فوقه. هكذا أحس بنفسه، حين فاجأته ذاكـــرته، بفكـــرة أخذت تتكتك في رأسه ككرة البينغ بونغ. راعه الفـــراغ المحـــيط به، بدأ يشعر بالتلاشي، أمام عتو الكون؛ فتلبسه إحســـاس عميق، بأن هذا الإله، الذي يسيطر على كل هذه القوى لابد أن يكون هائلا، ويرى المشهد مثل باشق. أما هو الذي مكانه علـــى الأرض، فإنـــه يتحرك من قمة إلى قمة، مثل طائر قلق لا يرى غير التفاصيل. ألهذا السبب يكون عجزه وخوفه مطبقا، أمام شركائه في الحياة؟!

انتقلـــت التكـــتكة إلى مقدمة رأسه هذه المرة، أخذ يقلبها على جوانـــبها.. "البدوي مثل حبة رمل، لا تختلط مع غيرها البتة، وإن مـــرت علـــيها ملايين السنين" أعجبته الفكرة، قراءة من الخارج، لكـــنها جـــيدة على كل حال. كلاشيه. قال لنفسه، ثم انطلق يطرح الأسئلة ويجيب عليها. هل أتحاشى الناس، لأنني مثل حبة رمل لا يمكـــنها الاختلاط مع غيرها؟ أم لأنهم مثل فيروسات دائمة البحث عن نقطة ضعف في جهاز مناعتي؟

الله.. يقـــيم معـــه علاقات من نوع ما، صحيح أنها علاقات مرتـــبكة، وزادهـــا هذا المكان ارتباكاً، ولكن هذا الارتباك سبب رئيســـي فـــي قدرته على حفظها. واثق أن الله سيتخذ إزاء نقاط

ضـــعفه، موقفـــا مطابقا لموقفه يوم دخلت أم صديق لتسلم عليه، صمم أن تجلس. حين قامت، كان ثوبها داخلا بين فلقتي مؤخرتها. ماذا فعل؟.. أخذ يحادث صاحبه حتى يلهيه عن المشهد.

قد يذهب لأداء الفرائض في اليوم خمس مرات، وقد لا يفعل. فإمـــام المســـجد الذي أصدر فتوى بكفره، لا فرق بينه وبين شيخ القبيلة الذي يشيح بوجهه إذا لاقاه، لا لشيء إلا لابتعاده في الفترة الأخـــيرة عـــن الديوان؛ فالمصالح التي لشيخ القبيلة من حضوره للديـــوان، بشـــرط أن يكون محجما وتابعا، هي نفسها التي لإمام المسجد من حضوره للصلاة وراءه.

رغم كونه لا يقيم علاقات منتظمة مع الله، فقد كان في أعماق ذاتـــه، يشعر بأن الله لا يمكن أن يكون عتيا معه، وأنه أقرب إلى الله من شيخ المسجد، وهو ينتمي للقبيلة، ويحبها أكثر من شيخها، الذي لا يفعل شيئا، سوى الانحناء على باب قسم الشرطة كل يوم.

تذكـــر تلك الحكاية، التي كانوا يرددونها عن واحد من مشايخ القبـــيلة، جاءه أبناء أخيه يشتكون شخصا ألسن منهم، وكلما قابلوه عـــند قـــاض، استطاع أن ينزع الحكم من فم القاضي، لصالح من كـــبّره، لذلك أرادوا قتله، وعليهم قبل أن يقتلوه، أن يأخذوا موافقة الشـــيخ. صمتْ الشيخ، وحين طال صمته، ألحوا مبررين سهولة قـــتل الـــرجل بكونه مخصيا، وفوق ذلك هو تقريبا بدون أقرباء. فزع الشيخ، وقال لهم مقولة ظلت القبيلة ترددها مثل تعويذة: كنت أتمـــنى لـــو أن في القبيلة مائة رجل مثله، أقابل بهم القبائل، وأنتم تريدون قتله، قوموا من هنا.

ســيرد على الحكاية، التي لا مناص صحيحة، بأن ذلك كان فــي الزمن القديم، ثم إن الناس يرددونها بشاعرية، مثلما يرددون المآثــر التــي تحكى عن بطل أسطوري، عاش منذ آلاف السنين، تظــل الحكاية تتردد من فم إلى أذن، وكل فم يضفي عليها، حتى يصل صاحبها، بعد كل هذه السنين، متفردا وخرافيا.

كانــت الأفكــار تتناوب رأسه، تناوب الدلاء في فوهة بئر، تــناول الحقيــبة، فــك عقدة حبلها وأخرج المنظار، وضعه على عينــيه، نظــر عــند رجليّ الشاهق، رأى غاليت تغطي جسدها ببطانية، وتغط في النوم قدام الخص، بينما صفائح البيرة الفارغة، وبقايا لفافات الطرينة، تملأ المكان.

هــل أشــاح عودة عن غاليت؟. اختارت هذا الشاهق، لترسم اللوحــة فوقــه، اختارت الزمان أيضا قالت: سأقوم برسم اللوحة فــوق تلــك القمــة، وأشارت بيدها نحو الجبل، ثم أردفت: الفجر نصــعد، نرقب الشمس تبزغ، من بين كتفي الجبل المقابل. أعدتْ اللوحة، ثم وضعت الألوان والفرش في حقيبتها، وقام عودة بإعداد حقيبته، وضع فيها المنظار وصفيحتي كوكاكولا.

ولكــنها، على إثر السكر ودندنة عود عساف بالأمس، انتشت ونامــت، صعد وحده يقول لنفسه: دعها تنام (يا ولد) هذا الصباح، الأيام أمامنا طويلة (عد موجات البحر يا جحا.. الجايات أكثر من الرايحات..)

خلصــه المــثل من أكثر اللحظات التي ترعبه، لحظة إشاحة الوجــه. فمنذ تلك المرة التي أشاح فيها الشيخ بوجهه عنه، صار

يفتش عن هذه اللحظة، وتتوالى الأسئلة في رأسه، توالي قطيع من الماعـز تلـج مضـيقا جبليا، أهو الذي أشاح بوجهه؟ أم الآخر؟ وحيـنما رسـب فـي اختبار القبول بالكلية الحربية، لم يقل لماذا رسبت؟ بل قال لماذا أشاح الضابط الممتحن بوجهه عني؟!!

شـيخ القبـيلة رآه في حلته بهيا وأفضل من ابنه، فتعمد إلا يقابله بوجهه، لمحه مرارا، يتفحصه من فوق أرنبة أنفه، فكر في معـنى هذه النظرات، وظن الرجل يتخيله زوجا لابنته، وسرعان ما تذكر قوله: عودة ولد سلمان المجنون. تذكر أن أبا الشيخ فعلها مع جده، الذي راجع نفسه، وخلع الثوب الذي ضايق شيخ القبيلة، وعـاد إلـى ارتداء ثوبه القديم الرخيص. إذا كان الشيخ قد أشاح بوجهـه عنه، لنفس السبب، الذي جعل أباه يشيح عن جده، فلماذا أشاح الضابط بوجهه؟

* * *

شعر بالغثيان؛ فأمسك وجهه براحتيه، أغمض عينيه، وتشبث بنفسـه علـى قمة الجبل، كي لا يسقط عند قاعه، فتح الحقيبة، لم يجـد المـاء، أخـرج صـفيحة كوكاكولا، قشع الغطاء المعدني الملتصـق بفوهـتها، وصب في يديه وشطف وجهه، أحس، رغم اللزوجة التي تركتها الكوكاكولا على وجهه، ببعض الإفاقة، تناول الحقيبة، كان الحبل القابض على فوهتها مفكوكا، أخرج الكاسيت، وضـعه إلى جانبه، نظر إلى البحر الممتد عند قدمي الجبل، كان لـون البحر وهدوؤه فاتكا، وهو يمتد ليفصل بين الشاهقين، اللذين يتصاعدان في دولتين، كانت غاليت تردد: بن سلمان . بن سلمان،

أريــد أن أرسم اللوحة، حين تخرج الشمس من رأس الجبل، الذي فــي الأردن وأنــا جالسة على قمة هذا الجبل الذي في سيناء، بن سلمان.. هكذا صارت غاليت تناديه، منذ اللحظة الأولى، التي قدم نفسه لها: اسمي عودة.. عودة بن سلمان. ظلت تناديه "بن سلمان" متحاشــية اســمه الأول "عودة" . أعجبه الاسم، وصار يتمنى، لو يــناديه الــناس به؛ فالموسيقى التي يُنطق بها، تذكره بالموسيقى، التي ينطق بها اسم بن فرانكلين.

***

تناولــت هاتفــي الجوال، لأهاتف سمير راغب، وأسأله عن معــنى كلمــة "بن" في اللغة الإنكليزية. خانتني الشبكة؛ فقد كانت الشــبكة المصــرية واقعة، أخذت جوّال غاليت، الذي اشترته من ســائحة إســرائيلية، أجبرها الفلس على بيعه، فجأة وجدت نفسي أنكمــش، فقد تذكرت أن سمير راغب، قد تزعجه مكالمة آتية من إســرائيل. تخلصت من انكماشي بسرعة، لحظة تذكرت أن سمير راغــب، ليس بدويًا كي ترعبه هذه المكالمة، فمرة هاتفتُ بدويًا، من هاتف صديق تركي، شعرت وأنا أهاتفه أنه يريد الفتك بي، لم أتضــايق، تركيا في المخيلة الرسمية مرتبطة بالمخدرات، وهو لا يــريد إشــكاليات، ســتحدث له، لاستقبال مكالمة من تركيا، على هاتف باسمه.

لكــن سمير راغب لن تزعجه مهاتفة آتية من إسرائيل، وهو الــذي أزعــج المسلمين والنصارى يوم قرر الزواج من رند، هو مصــري قبطي، ورند مسلمة فلسطينية. طلبتُ الرقم، رفعت رند

السماعة وبصوتها المبحوح، من سجائر الكليوباترا، التي تدخنها بشراهة. قالت: سمير نايم. قلت: صحيه. ثم أضفت مرة ثانية: صحيه.. سمعتها توقظه، عرفت أنه سيكون متضايقا، لم أهتم بضيقه. عرفته أثناء مؤتمر خاص بالمحميات الطبيعية، كان يترجم كلامنا للإنكليزية، ويترجم الإنكليزية للعربية، بعد انتهاء المؤتمر، اقترب مني قائلا: إنت من سينا. قلت: أيس. ابتسم. اعتقد أني أريد أن أقول **yes**، ولكني شقلبتها إلى أيس. وضحت له بسرعة: أيس كلمة عربية تعني نعم. مفردة ليس هي في الأصل لا أيس بمعنى لا نعم، ولكنها أدغمت فأصبحت ليس، وثمة قبيلة في سينا تقول ايس، وتستخدمها بمعنى نعم في حالات الاستفسار. قبل أن نفترق، أعطاني كارت، فيه رقم تليفونه. ابتسمت وأنا أتناول منه الكارت، كنت أعي أنه يتعامل معي، مثل واحد من الكائنات التي يدور حولها المؤتمر، لم يضايقني ذلك.

جاءني صوته عبر الهاتف، كان يتكلم تحت تأثير النوم، لم أعتذر. سألته عن معنى كلمة بن في الإنكليزية، قال: دا اسم.. دا اختصار اسم. فسألته: ايش هو الاسم؟ رد: بنيامين. قلت شكرا وقفلت السماعة.

***

مَن؟ فعل ماذا؟ عن مَن؟ هذه واحدة من أدوات محترفي الذكاء الاصطناعي، كتبتها ليسهل عليك بلع ما أريد، لكن في البداية سأتركك لتلعب معها، استخدمْ تكنيكا بسيطا في اللعب، ليكن التقديم والتأخير، الإحلال والإبدال، ستحصل على مئات الجمل.

هـيا، الآن ابدأ، أما أنا فسوف أستخدمها كميزان، أعيد به توزين كلمات في رأسي، وسأتبع تكنيكاً بسيطا في الوزن، لنقل: مَن فعل مـاذا عن عودة؟ لنضيق أكثر: من فعل وجهه عن عودة؟ أكثر.. أكـثر: مـن أشاح وجهه عن عودة؟ أعلى، أعلى بلغة الصولات، وهـم يـنادون على عساكرهم، الذين يرددون الشعارات: الضابط أشاح وجهه عن عودة.

إذا وضـعنا مصـطلح ضـابط في محرك بحث على النت، سنحصـل على آلاف الكلمات، مثلا: نكبة، نكسة، صدر الحيطان، العوجة، الجولان، معسكر، رتب، أكتاف، جنرال، مارشال، جنود، الممـرات، متلا، الجدي، المليز، حرب، ثغرة، دفرسوار، دبابات، طائـرات، يرو سليم، يرو سالم، يرو سلمان، وسلمان رب القوافل عـند البدو القدماء، الأيام الستة، ميدان، معركة، هزيمة، نصر... الخ.

***

انسـحب عـودة، تاركا الضابط جالسا وراء مكتبه. اشترى جـريدة، وجلـس في المحطة، ينتظر الباص الذي يقله إلى رفح. قلب الصفحات يطالع المانيشتات: تناقص منسوب المياه في بحيرة السـد العالـي. مصرع خمسة وإصابة(..) في انفجار خط أنابيب غـاز طبيعـي في حي المعصرة. سيارة نقل مندفعة فوق كوبري السـيدة عائشـة تصطدم بعدة سيارات وتصرع خمسة أشخاص. النائـب العـام ينفي وجود كشوف البركة. دار نشر أمريكية تتهم عمـيد كلية تجارة عين شمس بنقل أجزاء كاملة من أحد كتبها إلى

كـــتابه المنشـــور بالعربـــية. تفجيرات نووية إسرائيلية في القارة القطبـــية الجنوبـــية. صورة تحتها مكتوب: المهندس عثمان أحمد عثمان والمحاسب أشرف السعد يفتتحان أحد المشروعات الجديدة. وأخـــرى: ســـمو الأمير الدكتور الشيخ الفاسي في زيارة أكاديمية الشـــرطة وفـــي اســـتقباله الســـيد الدكتور اللواء (..) نائب وزير الداخلية (...)

***

بينما الأصوات المنطلقة، من الفيلم المعروض على الشاشتين، المعلقتيـــن فـــوق الكراســـي لـــم تسكت، تناول عودة حقيبة الجلد الصـــغيرة مـــن الـــرف، ثم وضعها على كتفه، وأتجه نحو الباب الامامي للباص.

– سادوت.. قال للسائق وهو يدس في جيبه بعض الفكّة.

أي خدمـــة. قـــال السائق بينما الباب الأمامي ينفتح، ليأخذ شـــكل بوابـــة صـــغيرة، تفصـــل بين برودة الداخل التي يطلقها التكيـــيف، وحرارة الخارج التي تدقها السماء كمسامير في الهواء الصحراوي. استقبل عودة سخونة الهواء، بينما الباص يبتعد مخلفا وراءه ضـــجيجا بـــدأ يتلاشـــى، قبل أن يخنقه الخلاء الممتد على جانبـــي الأسفلت. عَبر الشارع إلى الناحية الأخرى، فسمع صوتا هامســـا: ديـــر بالك يا عودة البوكس قدامك. من هذا.؟ قال عودة وانحـــنى ناحـــية الهمس، كان حماد تحت شجرة لوز متمددًا على بطـــنه، ينفـــث دخان عقب سيكارة، يرسل التحذير واضعا إصبعه على شفتيه، مرحب حماد. هلا عودة. دير بالك البوكس بتلف. لا

تقلــق علـــيّ معي هويتي. ودهم يرموك في البوكس من غير ما يسعلوك عنهي .

ايـــش صـــار؟ أرتـــجّ السؤال داخله حين اقترب من الدرب الموازيـــة، التـــي كان يسلكها إلى المدرسة. انحنى وتناول زلطة، رمـــى بها فروع شجرة الجميز، التي تنتصب على حافة الدرب، تـــناول حبة حمراء، من الحبات التي سقطت، مسح التراب عنها، ووضعها في فمه.

كانـــت جدتـــه تعتلـــي جذوعها وتسقط الثمار؛ فيجمعها في حجـــره، يأكل الناضجة، أما الرديء فتأكله الأغنام، انفرج ساقاها؛ فـــرأى مـــا ظـــنه جـــرحا بين فخذيها؛ فصاح متسائلا: من اللي جرحكي هالجرح الواعر يا جدة؟ هذا جرح جدك.. تعيش وتجرح جرحه.

يســـتغرب عـــودة ارتقـــاء جدته للجميزة، لكن ما يثيره أكثر ضـــحكها دونما سبب، وسؤالها عن أبيه وعمه، وقولها إن الطيارة أخـــبرتها أنهمـــا جاءا مساء أمس، وحديثها أحيانا عن حضورهما بفـــرح ظاهر أو بحزن شديد، ومشيها تطلق الزغاريد في الخلاء، وقولها أن البراد أخبرها أن سلمان سيعود بعد أسبوع.

أما الأم التي تحكي لعودة حكاية جدته فتضيف: لكن جدك لم يـــتركها.. وداها للفقير، ولمّا عجز عن مداواتها، ذهب الى كاشفي الورق في خان يونس، أوصوه أن يحضر ديكا أحمر، ثم يَعدّ سبع موجـــات ويذبحـــه لـــرجال البحر. تساءل عودة، ولكن لماذا أخذ رجـــال الـــبحر عقل جدتي؟ وإذا كان رجال البحر أخذوه؛ فلماذا

يعايرني الأولاد بيا ابن المجنونة؟. لم تكن المرأة مجنونة حين تزوجها الجد، الذي كان شابا حين حلّ ضيفا على قريب له، نادى الرجل على ابنته لتأتي بالإبريق، كانت طفلة في حوالي الثامنة، ويبدو أن نظرته لها جعلت أباها يفهم إعجابه بها؛ فقال مازحا: إن صبرت جوزتك ياها. كانت جميلة وهو وسيم يدهن شعره بالسمن.

وهنا من حقي أن أظن أنه أعجب أباها، وأن مزحة الأب كانت خلطا للجد بالهزل. تعدى الثلاثين من عمره وهو ما يزال أعزبا، تذكر تلك المزحة، فوضع نعاله في رجليه، وتوجه من فوره إلى بيت قريبه. تزوجها فأنجبت سلمان وقطيفي. سلمان مررنا عليه، ولكن ما حكاية قطيفي؟ ولماذا برزت هذه الحكاية حين قفز في وجهنا جنون الجدة؟ كنت صغيرا أغسل الفناجين في الديوان، حين كان الكبار يقصونها وهم متحلقين حول النار.

كان قطيفي في الرابعة عشر من عمره، ولم يكن قد ذهب إلى العقبة أكثر من ثلاث مرات، عزّ عليه أن يترك حلمه، وها هو قد عرف الدرب، وصار قادرا على درء أخطارها، فإذ بالحدود تعبث في الرمل، الذي درب نفسه على الالتفاف حول كثبانه. رجاه أبوه طويلا أن يترك التجارة، فلم ينفع معه الرجاء، ذكّره بأن الدول قذفت بعساكرها على المشارف الشرقية لمضارب القبيلة، ووضعتها في قلب البادية، مثلما تضع الأفعى سمها في جسد الآدمي. الحدود لا سبيل لاجتيازها.. إن كان هناك سبيل، فالمقابل لا يعادل الخطر الذي يُقدم عليه. كان الأب يتكلم، بينما قطيفي يشيح بوجهه صوب الخلاء، يداعب حصوات بين يديه، يسربها

بين أصابعه، ثم يعود يلتقطها مرة ثانية: اي يابياه بس لا تاخذ في بالك انت. في جوف الليل سمع الأب همهمة الجمل، وأدرك أن لا سبيل لمنع القافلة من المكتوب، فدعا لها بالعود سالمة.

فــك قطيفي عقال البعير، وفرّق الكليمات في الخرج، بعد أن رصّ الخـــرز والمسابح تحتهما. خطى الجمل متمهلا، عن البيت مسافة ليست بعيدة، فاعتلى قطيفي ظهره، وحثه على السير جنوبا تجاه العقبة، جاوز رأس النقب؛ فاتخذ له مكانا على الناحية الغربية من الحدود، أناخ الجمل وجلس يستريح ويريح بعيره. تناول حبات من التمر دسها في فم الجمل، ثم استلقى على ظهره يتملى النجوم، وبعــد أن عاين موضع بزوغ نجمة الثريا، أغمض عينيه منتظرا طلوعهـــا. غفـــا فأيقظته همهمة البعير، نظر إلى حيث حدد موقع بـــزوغ الـــنجمة، كانت الثريا تخرج على استحياء، تناول القربة المـــربوطة فـــوق السرج، ملأ كفه بالماء البارد وشرب ثم مسح وجهـــه، بهـــدوء اعتلى ظهر البعير، لكزه، فانتصب الجمل واقفا، لامـــس رقبـــته وهمس له: حيت. توجه إلى الحدود وحين اقترب مـــنها رفـــع الجمـــل رأسه عاليا، وتلكأ في مشيته، أصاخ قطيفي السـمع، كـــان صـــوت الـــباور. يخـــتلف عـــن صوت سيارات المصـــريين، القلـــق الذي تثيره سيارات اليهود أكثر، لعناء اليهود قادريـــن على اصطياد حتى البرغشة، المصريون لا خوف منهم، مـــن الممكـــن رشوتهم، تمتم وهو يتدلى نازلا على رجل الجمل الأمامـــية، لف رسن الجمل على ساعده، وثنى ركبتيه فوق الرمل وأصـــاخ السمع، كان الصوت يبتعد، شهق نفسا، وتعرقب الجمل،

ولمّا استوى فوقه، خفف من قبضته على الرسن، فانساب حتى اجتاز الحدود، فأزّه قطيفي متمنيا في أعماقه، لو يتحول إلى حصانٍ عليّ ابن أبي طالب فارس المشارق والمغارب أسد الله الغالبٍ الذي يجري على مد الشوف، كما حكى أمامه الشيخ في الزاوية، حين كان يتردد عليها.

مع شروق الشمس كان في سوق العقبة، باع ما معه وبحث عن عقد وعد مليحة به، لتزين جيدها يوم العيد. مليحة بنت عمه، التي أعطاه أبوها قصلتها من سنوات. اشترى العقد ودسه في قعر الخرج، ثم رصّ فوقه باقي البضائع، انسحب إلى طرف المدينة ليريح بعيره، عقل الجمل، ثم توسد نعاله تحت شجرة أثل، تغطى بعباءته وأغمض عينيه. حين استيقظ، قام ولملم حطبا، أوقده، ثم ملأ كفيه من الدقيق الموضوع بعناية في طرف الخرج، وضعه في إناء يسقي فيه الجمل، دلق عليه حفنة ماء، من قربة معلقة فوق سنام البعير، عجن الدقيق ودسه في التراب تحت النار. أخرج الرغيف بعد أن قلَبَه على جهته الأخرى، همهم للجمل؛ فاقبل، وضع في فمه نصف الرغيف.

كركرت دلّة الشاي بطرف النار، فملأ يده سكرا ووضعه فيها، قضم الرغيف موزعا عينيه بين جمله، الذي يمضغ ببطء، ودلّة الشاي التي بدأت الفقاقيع تنساب من طرفها، على الجمرات المتقدة؛ فتحدث حشرجة، تناول حفنة من شاي، حطّه فيها. أبعدها عن النار لتغلي بهدوء. صب في فم الجمل شفطة شاي، وصبَ لنفسه الفنجان الأول، جلس يرتشف الشاي، ويتأمل رءوس الجبال،

التـــي تحيط به باستكبار. حين قارب الليل على الانتهاء، شد على جمله وتأكد من وضع الأشياء في أماكنها، تحسس العقد، ثم اعتلى ظهـــر الجمـــل، عـــارف أنـــه سيعبر حدود الأردن مع إسرائيل، وسيصـــل صـــحراء النقـــب مع الظهر، سيتعداها إلى قرب حدود إســـرائيل مـــع سيناء، هناك يريح جمله حتى الفجر، في الضحى يكـــون بين أهله. حين أوغل في صحراء النقب، أحس بالجمل من تحـــته يـــتململ، اطرق أذنيه، سمع أزيز الطائرة. طائرة اليهود. همـــس لجمله ولف الرسن حول رقبته وأطلقه، التصق بشجرة أثل كســـاقها، أما البعير، فمضى حتى وجد شجيرات سدر، أخذ يقضم الطري من أغصانها. كانت الطائرة تحوّم فوق قطيفي، تقلّب عليه الصـــحراء، تقـــترب مـــن الشـــجرة تكاد تجتثها، غابت الشمس؛ فابـــتعدت الطائرة، وقبل أن يتلاشى صوتها، سمع همهمة البعير، اعتلاه ولكزه ليلحق بالحدود قبيل الفجر.

وصـــل البيـــت ضـــحى، ربط الجمل وذهب لينام، وقبل أن يغمض عينيه، جاءه صوت رفيقه لويفي: يا قطيفي ..ولد العيد ع قوز العيد يا قطيفي. قفز ملتفتا ناحية قوز العيد، الحكومة. همس. كانـــت الحكومـــة أقرب إلى الجمل البارك، الذي يحاول الوقوف ولكـــن القيد يعيقه، بينما يتطاير الزبد من فمه كأنه رغاء الصابون .. " لو لم أعقله." قال في نفسه. أخذ العسكر الجمل، ذهبوا به إلى النقطة، بعد أن تقاسموا البضاعة التي وجدوها مكومة الى جواره.

جـــاء الشيخ يعطى الأمان لقطيفي، مقسما عليه أن يُسلم نفسه للحكومـــة، وســـيعطونه الجمل والبضاعة، إن أقرّ على نفسه بألا

يعــود. مالــت نفــس الأب لعرض الشيخ، وقال لأبنه: اذهب مع الشــيخ يــا قطيفــي للحكومــة.. الحكومة هي الرب الصغير ، سيعطونك بضاعتك.. أو ع الأقل جملك ولن يؤذوك.

ما لهم أمان، ما وفوا بوعدهم مره واحده.

سيوفون المرة هذي يا قطيفي. قال الشيخ.

لن يوفوا.

اذهب مع الشيخ يا قطيفي .. وفى ضمانته. رجاه الأب

ذهــب قطيفــي برفقة الشيخ إلى النقطة، ادخلوه إلى الخيمة، وصــرفوا الشيخ وعدوه بأنهم سيطلقونه بمجرد إخبار القيادة ولن يــتأخر كثيرا، ما أن توارى الشيخ حتى أتوا بقطيفي، شدوا وثاقه، ألقوه على وجهه أمام الخيمة، ويداه مربوطتان إلى ظهره، صاروا يكيلون الركلات إلى وجهه، حتى سال الدم من أنفه وفمه.

فى صباح اليوم الثانى، فكوا قيده، وغطوا عينيه وجروه إلى خــيمة فخمــة يجلس فيها رجل تلمع فوق أكتافه النجوم الصفراء، كــان خمسة من الجنود يقفون أمام الخيمة ينتظرون أوامره. حين صار قطيفي أمامه، صرخ الضابط: بتعمل إيه في إسرائيل يا ابن الكلــب؟. قوطرت للعقبة ما قوطرت لاسراييل. أنت بتبربر بتقول إيــه. مــا تــتكلم عربي يا كس أمك، وتقول كنت بتعمل إيه في إســرائيل. أنا ما لقيت ع اسراييل، آني لقيت ع العقبة، وبضاعتي شــاهدة .. لم يكمل قطيفي العبارة، جاءته لكمة على وجهه كادت تطرحه أرضا، تماسك، جاءته الثانية؛ فسقط على وجهه.

فتشـــوا طيزه هتلاقوا الجهاز مخبيه فيها، وان ما لقيتوهوش هـــاتوا أمـــه، هتلاقوها مخبياه في كسها، اصل أنا عارفهم العرب دول ولاد شـــرموطة خونـــة، ومـــالهومش دين..اليهود بينيكوهم، اسْـــتَحلوا ازبار اليهود، عشان كده همه بيحبوهم. رفع جندي ثوب قطيفـــي فانـــتفض محاولا الوقوف، جلس ثان على رأسه، وثالث علـــى ظهـــره.. وأمســـك الرابع برجليه، رفع ثوبه. أما الخامس فأدخل شيئا غليظا في مؤخرة قطيفي التي انقبضت.

مالقيناش حاجه يافندم. أرموه في الخيمة زى الجدي، وهاتوا أمه هنا، فتشوا كسها قدام ابن الوسخة اللي مش عايز يقول مخبي الجهاز فين. التفت إلى قطيفي موجها إليه الكلام وهو يضغط على الحـــروف: هتفضل عندي هنا هووه.. أخليهم ينيكوا في دين أمك لحد متقول الجهاز اللي ادوهولك اليهود مخبيه فين يا معزة يا ابن المعزة.

جـــاءوا بأمـــه وقلّـــبوا مؤخرتها أمام عينيه، نهق مثل حمار وأخـــرج زبـــه وأخـــذ يستمني علنا، أمام العسكر، وأمام أمه التي صـــرخت وهـــى تحـــاول الفكاك، من الجنود الذين يكبلون يديها ورجلـــيها، محاولة القفز صوب ابنها، الذي رأت الزبد يتناثر من فمـــه، وحيـــن لم تستطع التخلص من قبضة العسكر، جلست على ركبتيها وصرخت.

ســـيظل قطيفـــي يحوم في البرية شبه عار، وكلما يرى بنتا ســـارحة وراء غـــنمها، يعري زبه ويستمنى أو يبول علنا. حتى وجـــدوه ميـــتا تحـــت مثنانة، ورأسه مملول بين عروقها، وساقه

اليمـــنى زرقاء منتفخة، وآثار أنياب الأفعى واضحة فيها. ستطلق أمه الزغاريد، وستظل تطلقها حتى تموت.

جـــاءت الجـــدة، تطلق الزغاريد، حين رأت الراية، ترفرف وهـــي تـــردد بـــأن الطيارة لم تكذب لمّا خبرتها برجوع سلمان، حاولـــت الأم إســـكاتها؛ فنادى عودة من الداخل: زغردي يا جدة، زغردي. نادته الجدة: بالله ما جا أبوك؟. جا أو ما جا، زغردي.. بـــس زغـــردي. لو أن أبوك ما جا ما علقت أمك الراية. ما جا.. علقتها لما أطهرت أمس.

لـــم يفـــرح عودة بالثوب الذي ألبسته أمه، كان قميصا أبيض بنصـــف كـــم. لا يعـــرف من أين أتت به، وإن كان يعتقد أنه من قمصـــان خالـــه، سألها: هذا قميص، وليس ثوبا مثل الثوب الذي يلبسه الأولاد. قالت: انتظر وسأجعله ثوبا أحسن من ثيابهم، ودون أن تقطع أزراره حاكت صدارته، ثم عرضته أمامه: وش رايك؟.

طلبـــت الأم مـــن عـــودة، أن يرتقي النخلة، ويأتي بجريدة، تخلصت من السعف ولم تبق منه غير عرف صغير فى رأسها، ثم خاطـــت تحـــته القماشة البيضاء، وعلقتها فوق البيت، قبل الفرح بسبعة أيام. اكتفت بتعليق الراية ولم تُقِم فرحا، أثارت الراية خلافا حـــادا بين الأم والجدة، حين جاءت تطلق الزغاريد، فأسكتتها الأم متشـــائمة مـــن إعلان الفرح. من أيام الجد القديم جد العائلة، الذي أصيب بضربة رمح فى عنقه، في واحدة من أشد وأعنف حروب البدو، وظل عنقه مفتوحا حتى مات، وكان لا يأكل ولا يشرب إلا مضـــجعا، لأن الأكـــل والشـــرب يندلقان منها، كان فخورا لأنها

انفتحت، أثناء دفاعه عن حمى قبيلته. أبلى الجد بلاء حسنا في تلك الحـــرب، قبل أن يرميه أحد الفرسان، برمح في عنقه أسقطه عن فرســـه، ولا تنتهي الحكاية هكذا، إذ هناك من يقول: إنه أخذ ماله وأمه وأخته الصماء البكماء، وأخوين له الأول في الثالثة عشر من عمـــره والثانـــي في السادسة، وبادر بالهروب يوم المعركة، حين رأى كـــثرة الفرســـان المهاجميـــن، ولمّـــا لحقوه، امتطى وأخوه جواديهما، وظلا يقاتلان حتى قتل أخوه، ووقع هو عن فرسه، أما أمه، فقد جلست فوق كيس المال، والطفل بجانبها، وحين قتل الأخ ووقـــع هو عن فرسه، اقتاد فرسان القبيلة المغيرة الطفل، ومددوه علـــى الأرض أمام أمه، وضعوا السيف على رقبته، وطلبوا منها أن تلبســـه ثـــوب امرأة مقابل تركه. وحين رفضت، قطعوا رأسه ودحرجوه نحوها، فقابلت الأم الرأس المتدحرج بالزغاريد.

ثمـــة ما تجاوزناه، حين حكينا عن الجُد المرمي، والدم يسيل من رقبته، إذ بادر أحد الفرسان بحمله، ونقله إلى خيمة ضمّد فيها جراحه. أراد الزواج، فخطب بنت منقذه، وبعد طول إعداد للفرح، نحـــرت الذبائح، وأشعلت أمه النار لطهي الطعام، امتدت النار إلى طـــرف البيـــت فاحـــترق، ومـــن لحظتها صار الجد يتشاءم من الأفـــراح، وأورث العائلـــة التشاؤم، ومن يومها لم يُقم لا هو ولا أحفاده من بعده أفراحا.

* * *

كان رجل يجوب المضارب، بخُرج على ظهره، يخرج منه مقصات وأمواس، يحلق بها رؤوس الأولاد وأحيانا الرجال. جاء

لــيقص شــعر عودة، ففزع من عينه العوراء، كانت مفقوءة. كان يفــك الألغام المتخلفة من الحروب، ليبيع نحاسها، انفجر لغم فأخذ عيــنه اليمنى. أما الأولاد فيقولون بأن عينه عين كلب، ركبها له الحكيم.

وضع الرجل المقصات والأمواس على الرمل، وقام بمسح الموســى بطــرف ثوبه، وقطع غلفة عودة، الذي بكى من الألم، وزاد من بكائه إسكات أمه لزغاريد جدته، انتحب مطالبا بأن يقام له فرح، أو تزغرد جدته. رضخت الأم لبكائه المتواصل، وجمعت جاراتهــا. الأم تغنــي والبــنات بثيابهن المطرزة بالأحمر يدبكن، الســعادة التــي ملأتــه، من طقطقة الخلاخيل والأساور والأقراط والقلائد، جعلته كلما مللن طالبهن بالمزيد.

***

فــي سنة **78** كان عودة في الصف الخامس، يشاركه الدرج عســاف، الــذي كان الأستاذ سعيد العشي، يعول عليه في الفوز، بــبطولة دوري المــدارس لكرة الطائرة. من شان الله يا عساف، العــب السيرف وأنت واقف، ولك دخيل دين ربك، العب مثل ما كــل الناس بتلعب.. وأنت واقف، وأنت واقف. ثم يجلس، الأستاذ، علــى ركبتــيه رافعا يديه: وأنت واقف يا عساف. يجلس عساف علــى مشــطي قدميه، يلعب السيرف بظهر يده، فلا يقدر أحد أن يصــد الكــرة، التي تصفر متجهة إلى البقعة، التي أرسلها إليها. وحين تسوء نتيجة فريقه، يبدأ في طرد زملائه، حتى يظل وحده، وحين يحس بأن النتيجة ليست في صالحه، يُطلق الشتائم.

كانـــا في طريقهما إلى المضارب، عائدين من المدرسة بعد انتهاء الدوام، حين رمى عساف بالكتب والدفاتر فى سياج الصبر، ثـــم أقسم بأنه لن يعود الى المدرسة مرة ثانية، وأضاف: أنا ودي ألقـــي ع إســـرابيل يا عودة . وايش ودك تقول لـــ هلك؟. ما أني قـــايل لـــيهم شـــيء. علمهم أنت. بس مش قبل المغرب، فهمت. المغــــرب تكـــون السيارة طلعت من الموقف. وين ودك تلقي في اســـرابيل. ما أني داري. بس دير بالك أمي ودها تنجن، وتلحقني ع الموقف، تسوي لي فضيحة.

خـــلاص. بطل المدرسة يا استاذ. لقى ع إسرابيل وده يشتغل هنه. رد عودة على الأستاذ سعيد حين سأله عن عساف.

ذهـــب عســـاف إلـــى الطيرة، سكن فى بيت تحت البناء، مع عشـــرات مـــن العمال البدو، كان أهل الطيرة يسمونهم الغزازوة، وكلمـــا رأى الأولاد مـــنهم واحـــدا، رموه بالطوب وهم يرددون: غزاوي بيضو لاوي. اشتغل في مزرعة لإنتاج البيض، لها زبون دائـــم، يهـــودي من أصل يمني، صارا صديقين، عرض عليه أن يعمـــل عـــنده، وافـــق عساف، خاصة وأن الأجر الذي سيتقاضاه كبـــير، اتفقا أن يلتقيا بداية الأسبوع، على مفارق بيتاح تيكفا. كان مكـــان العمل الجديد هيكل باص على شكل كافتيريا، أمامه مظلة واســـعة وبجانبه ميكروباص مُعد للنوم. واجهة الباص مقصوصة، ومكانهـــا بـــراد يظهر كطاولة زجاجية. ولأن الكافتيريا مقامة فى مـــنطقة عسكرية، وأمام معسكر للمدرعات؛ فقد كان ممنوعا على العـــرب الغـــير مجنســـين دخولها. قال اليمني إن سألك أحد عن

بـــلادك، قـــل من راهط. ثم أوضح: قرية بدوية تابعة منطقة بئر السبع. أنت تشبه أهلها.

ســـارت الأمـــور بشـــكل جـــيد، حتى اللحظة التي سها فيها عســـاف، ووضـــع هويـــته تحت الزجاج، ونسيها. جاء اثنان من المشـــمار كفـــول، أوقفا الجيب أمام الكافتيريا، هبطا، واتجها إلى الـــثلاجة، تـــناولا صـــفيحتي كوكـــاكولا، وبدءا يشربان بهدوء، ويتفحصـــان المكان، فلمح واحد منهما الهوية، نظر إليها مدققا من وراء الـــزجاج، صـــاح: م ايفو اتاه؟ م بير شيبع. أجاب عساف، الـــذي لـــم يكـــن يـــدري أن الشرطي رأى الهوية. قفز الشرطي خطوتيـــن إلـــى الأمـــام، ونقر إصبعه السبابة على الزجاج، فوق الهويـــة بالضبط ونادى: ييلد تين لي زى. التف عساف إلى الهوية وناولهـــا له، نظـــر إلـــيها الشرطي، ضغط بكفيه على صدغيّ عســـاف، الواقـــف متسمرا خلف طاولة الزجاج، وسحبه من فوق الطاولة إلى الخارج، حمله تحت إبطه، وأقعده على صدام الجيب. فـــي هـــذه اللحظـــة، بالضبط، كان اليهودي اليمنى آتيا من داخل المعســـكر، يحمل كيسا يلملم فيه الزجاجات الفارغة، من صناديق القمامـــة المنتشرة على جانبي الطرقات، رأى المشهد، زعق على الشـــرطي: لا تقـــربه. يقـــول عساف في حكايته التي لا يمل من تـــردادها، فـــي ليالـــي الكامب الجافة: وصل اليمني، فطلب منه الشـــرطي هويـــته، ناولها له، طلب منا أن نركب الجيب، رفض اليمنـــي مفضـــلا ســـيارته الفولكس فاغن. وافق الشرطي فأردف اليمـــنى: وعســـاف يصحبني في سيارتي. في الطريق أيقنت أني

هالك، أتواجد في منطقة عسكرية، أتعامل وبشكل يومي مع ضباط وجـــنود، يقبلون بعضهم ويتنياكون ويحكون أمامي، وهم جالسين فـــي الكافتـــيريا يأكلون ويشربون البيرة، أسرارهم. قطع تفكيري اليمنـــي طالبا مني، أن أنكر كوني أنام فى الكافتيريا، و أن أقول إني أسافر كل مساء، وأعود صباح اليوم الثاني.

جلســـتُ فـــي صـــالة مكيفة، أمام مكتب دخل فيه مستخدمي اليمني، بعد لحظات خرج اليمني، وهو ينظر نحوي باسما، أدخلت ابتســـامته بعـــض الـــراحة عليّ. أدخلوني الى ضابط استخبارات متواضـــع الرتبة، سألني عن سبب وجودي عند المعسكر، وإذا ما كنت أعرف حجم الخطأ الذي ارتكبته، بدخولي هذه المنطقة، وعن الطريقة التي أسافر بها كل يوم، أجبته الإجابات التي اتفقت عليها مـــع اليمنـــي. صرفني الضابط، بعد أن حذرني من التواجد أمام المعسكر مرة ثانية.

***

وصل عودة البيت فلم يجد أحدا، ألقى حقيبته من على ظهره، بحـــث عـــن الإبريق ليبل ريقه، وجده مقلوبا، لابد أن الكلبة فعلت ذلك. تمتم. كانت أمه في المرعى ولا تعود إلا مع مغيب الشمس، تربط أغنامها، تشعل النار وتعد طعام العشاء.

حيـــن عادت، أم عودة، تسوق غنيماتها، كان، عودة، لا يزال مكفيا على وجهه أمام الخيمة. لم توقظه الجلبة التي أثارتها الغنم، ولا نعيق أمه عليها. أما الأم التي أوصت ابنها طويلا، بأن يتجنب النوم بين أذاني العصر والمغرب، وأكدت عليه أن لا يقرب النوم

إلا بيـــن أذاني الظهر والعصر، أو بين العشاء والفجر، فقد نادت علـــيه. هـــب واقفـــا. أحست بأن الأمور ليست على خير، لكنها أمســـكت زمـــام الأمور، وأخبرته بأنها تركت عساف أمام خيمته يعمل شاي.

لـــم تكـــن تـــدري لماذا غاب ابنها، كانت تعرف بأنه يذهب للمدرســـة، قال لها مرة بأنه يريد إن يكون ضابطاً، فلم تلق بالا، لأنهـــا لا تعـــي الفـــارق بين الضابط والشاويش، رغم أنها رأت جيوشا كثيرة. كانت طفلة تسمع الناس يتحدثون، عن جيش البادية، الذي استطاع أن يدحر البدو نهائيا عن سرقة الكامب، لمّا جاء به الإنكلـــيز لحراســـته، وسمعت مثل كل الناس بحكاية مناع، حين ذهـــب لمعسكرهم، فسألوه أبدوي هو أم فلاح؟ ولأن الرجل بدوي بالفعل، أخبرهم- مفاخرا- ببداوته.

طلـــبوا منه أن يعاودهم في اليوم التالي، لأنهم يحتاجونه في أمـــر مهـــم. كـــان عسكر جيش البادية، يعدون طعامهم بأيديهم، يذبحـــون كـــل يـــوم خروفا. وحينما ذهب فوجيء بهم، وقد لفوا الكـــرش في خرقة، وطلبوا منه إن يأخذها. شكرهم.. ولم يعرف أنهـــم يختـــبرون بداوته، إلا حينما سألوه ولماذا لا تأخذ الكرش.. تغسلها وتطعمها عيالك؟. وحين أخبرهم بأنه لا يأكل الكرش، قهقه قائدهم عاليا، وأمرهم بأن يعطوه قطعة، من أحسن ما في الذبيحة، فقد أثبت الرجل كونه بدويا أصيلا بالفعل.

ومـــثلما رأت أم عـــودة جيش البادية، رأت جيش ابن سعود، الذي دفع به الملك عبد العزيز ليشارك في حرب **48**، وفي سنة **1967**رأت الجيش المصري وعساكره متناثرين بين المضارب.

.....

من بعيد رأى عودة النار المشتعلة قدام الخيمة، وحين اقترب مـــنها لاقاه الكلب. زجره.. فقرب الكلب بطنه من الأرض وصار يلاعــب ذيلـــه. قفز عساف مرحبا، وأمسك بحجر رمى به الكلب ونهره فابتعد.

مـــد عساف الكليم على الرمل، فسبقه عودة مفترشا التراب، ولملـــم الكلـــيم، ثـــم وضعه تحت كوعه، متخذا منه مسندا. حرك عســـاف الجمر، المتقد بماش في يده، قرب البراد ف طرف النار، ثـــم شـــطف فنجانين، وصب في واحد منهما شايا، وناوله عودة. ارتشف عوده الرشفة الأولى، ثم حفر في الأرض حفرة، دلق فيها الشـــاي المتبقي في الفنجان، ووضع الكليم تحت رأسه، وغط في نوم عميق.

***

لو كان عودة استشارني، قبل أن يقدم على هذه التجربة، التي لـــو لم تفشل في أولها، لفشلت في آخرها، لقلت له: ترى لو كنت ماشـــياً على قدميك، بجوار بدوي راكب على جمله، ووقعت من الـــرجل عصاه؛ فهل سيقول لك أعطني ياها؟. أرى عودة بخيالي، يمـــط شـــفته الســـفلى ساخرا من السؤال، ومرد سخريته، أنه ع الجســـر الفاصل بين البداوة وغيرها. سأعفيه من الإجابة. سيفعل

الـــبدوي بالترتيـــب: ينـــيخ جمله، يتدلى من فوقه، يمسك عصاه، يضـــعها تحت إبطه، ثم يعتلي جمله، يلكزه ليقوم واقفا، ثم يواصل طريقه.

سيســـألني عودة: وعلى أيش كل هاللفة، ليش ما قال ناولني العصا يا أبن أخ وخلاص. الذي فهمه عودة هو ما سيفهمه قريبنا الـــذي يعـــيش في المدينة، لو حكيت له نفس الحكاية؛ إذ لجيران قريبـــنا مشكلة معه: أقرباؤه، حين يأتوه زائرين، يظلون يطوفون فـــي الشـــارع وحـــول العمـــارة، دون أن يسألوا أحدا عن شقته، والأغـــرب هـــو ضيقهم إن تطوع واحد من الجيران (وكثيرا ما يتطوعون) وسأل الواحد منهم: عاوز مين يا أخ؟؟ . لا.. شكرا. يقول الزائر ثم يصمت مواصلا بحثه عن الشقة.

سيتبرم عودة: قلت لك وعلى أيش كل هاللفة؟. سأرد: لا تكن عجلا؛ فثمة فكرة بسيطة، جعلت فصيلا من الناس يصيرون بدو. بعـــض الـــبدو يؤدونهـــا بعقل، بينما الغالبية تؤديها بفطرية. هذه الفكـــرة باختصـــار تقـــول: أن ثمـــة علاقة عكسية بين احتياجك للآخريـــن وحريـــتك. راكـــب الجمل أدركها بعقل، وأداها بشكل يتناســـب والمفـــازة التـــي تدب أرجل جمله فوقها. زوار قريبنا، يؤدونها بشكل سيكون مقرفا له، وهو يلهث وراء السلوك المديني.

***

حيـــن يُقتل إبراهيم الهمص، سيظن عساف أن لا شيء قد حـــدث، لذا فأنه سوف ينبيء عودة بخبر قتله، وكأنه يتحدث عن حادثة قتل، عند قبائل الشيروكي. وحين يمتقع وجه عودة، فسوف

يفاجـأ بهـذا الامتقاع. فلا يوجد ود بين عودة وإبراهيم الهمص، ولعـل ذاكـرة عودة لا تحفظ من إبراهيم، غير وقوفه في طابور الصـباح، كتفه لصق كتفه، ثم يلف بوزه ناحيته، وحين يكون فمه علـى حافـة أذن عـودة يقول: بدوي جاعد.. أو حين يقابله في الطـريق؛ فيقفل أنفه بإصبعيه ويشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى، ليقول ساخرا: يا ريحة الكاز.. أمك بتحطلك كاز ع راسك ع شان يموت الكمل اللي ف شعرك.

أطلـق الشـرطي الفلسطيني، الرصاصات ع رأس مواطنه، فـأرداه قتيلاً. هذه هي الصورة كاملة. وهي لا تستحق، من وجهة نظـر عسـاف، غـير أن تنتهي بالضبط عند كلمة قتيلا، ثم ضع بعدها نقطة على السطر، وانتقل لغيرها.

أمـا عـودة، الـذي زامـل أولاد اللاجئين الفلسطينيين في المدرسـة، فالصورة ستختلف اختلافات طفيفة، وهذه الاختلافات هـي التـي ستدفع به، لأن يضع نعاله في رجليه، بعد أن بل يديه ومسـح بهما وجهه. ويتوجه من فوره إلى الأسلاك الشائكة، التي تقسم رفح رفحين.

غـادر عودة البيت، تاركا عساف وحيدا بجوار الراديو، الذي كـان يـنطلق منه صوت المذيع الرخيم، يقرأ طالع مستمعيه من خـلال أبـراجهم. عبر الشارع الوحيد الذي يمخر مدينة رفح من أولهـا حـتى آخرها، كان الشارع، والذي يؤدي إلى بوابة صلاح الديـن، خاليا. ثمة جلبة صباحية، سببها الباعة الذين بدأوا في فتح دكاكيـنهم، وقد صاروا يعرضون بضائعهم، على فرش وطاولات

خشـــبية أمامها. كانت المدرسة، ببوابتها الحديدية الصدئة، لازالت تنتصـــب على الحافة اليسرى للشارع، في مواجهة الباعة. جاءها ذات يوم، فوجد الباب مقفلا بقفل دراجة، وكتب عليه بخط مرتبك:

" اليوم هو يوم الأرض، وعليكم أن تشاركوا إخوانكم الذين سيعلنون الإضراب، في مدن القطاع، نحذركم من دخول المدرسة، الحوش والفصول ملأى بالمتفجرات."

وصـــل الفـــرّاش باب المدرسة، أوقف دراجته، ثم توجه إلى الـــباب، وحين وضع يده في جيبه، ليخرج المفاتيح تسمر واقفا، عاد بظهره إلى الوراء، اقترب من دراجته وهو يرتجف، وركبها تاركا المكان.

تقاطـــر التلاميذ، الذين كانوا يتمنون لو تنفجر هذه المدرسة، لـــيكفوا عن الذهاب إليها. ولكن فرحة الأولاد لن تطول، إذ جاءت ســـيارات الجيش الإسرائيلي المدججة بالجنود وخبراء المفرقعات، وطلـــب الجنود من الأولاد التزام الصمت. كسر خبراء المفرقعات القفل الذي يطوق الباب، واندلقوا الى داخل الحوش حذرين، بعدها قـــاموا بفـــتح أبواب الفصول. وحين لم يجدوا شيئا، قالوا للناظر: جمع الأولاد وأدخلهم .

حيـــن خـــرج الـــناظر للأولاد كان شحنهم قد اكتمل، فجاءوا بعجـــلات الكاوتشوك، ودلقوا عليها الكاز، أشعل إبراهيم الهمص عود الثقاب، ورماه فوقها، فغطى دخانها على الغبار المنبعث من صريف عجلات الجيبات فوق الإسفلت المترب.

رغـــم أن البدو ليسوا الحلقة الأضعف في المدرسة، إلا أنهم أول مـــن يفكـــر المسئولون في اختراقهم، في مثل هذه الحالات، لمعـــرفة الناتئيـــن على القانون. كان الناظر يلح على عودة: بس قولي مين اللي كتب هالكلام الفاضي.. إلا أن عودة ظل يردد: ما اني عارفه يا استاذ. ما اني عارفه.. رغم أنه كان متأكدا أن القفل الممسمر به الباب قفل دراجة إبراهيم.

***

وصـــل عودة البوابة الحديدية (هذه بوابة الحدود وهي غير بوابـــة المدرســـة) المـــزودة بصـــفارات إلكترونية، والمحاصرة بالجنازير والأسلاك الشائكة، وقف على الجانب الغربي، ينظر إلى مدخـــل بيـــت إبراهيم، الذي يبعد حوالي ثمانين مترا، من الجانب الآخر للبوابة.

ثمـــة امـــرأة، فـــي الناحية الثانية، تنادى على ابنها، الواقف بجواره، وتمتم بإشارات غير مفهومة، أو بالأحرى، فالهواء الآتي مـــن الجـــنوب، يتصـــادم مـــع كلامها الآتي من الشمال؛ فيتحول الصوت إلى لغة ثالثة، ربما هي أقرب إلى لغة الآراميين. فهم من الإشـــارات، التي تتبادلها الأم مع ابنها، أنها تعرض عليه الزواج. ويـــبدو أن العروس، المعروضة على الابن، واسعة العينين جدا، فقـــد كانـــت الأم، تضـــم رأس الإصبع الإبهام مع رأس الإصبع الســـبابة، فـــيما يشبه الدائرة وهى تخبره بأنها: شي عينها قد هيك ياامه.

تـــراجع إلـــى الوراء وجد حجرا، مسحه وجلس عليه، وبدأ يراقـــب الحـــياة حواليه، وفي الناحية الثانية بهدوء. كانت المدينة لاتزال ساكنة. العلم الإسرائيلي، بنجمة داوود فى منتصفه وخطين أزرقيـــن يطوقانها، يرفرف عاليا فوق البرج، الذي يعانق السماء فى الضفة الثانية. جندي إسرائيلي يجلس في أعالي البرج، ممسكا بمـــنظار يضعه فوق عينيه ويراقب المدينة، ثم يضعه على طاولة أمامـــه، ويمســـك بجريدة يقلب صفحاتها، بينما الجيبات العسكرية الإســـرائيلية، تواصـــل سيرها الروتيني، على الطريق الإسفلتي، الممتد بموازاة السلك.

في هذا المكان وقف شيوخ البدو، يقسمون بأغلظ الأيمان، أن هذا هو الحد الفاصل بين مصر والشام، وبأن الجنود الأتراك نقلوا العاموديـــن، الذين زارهما الخديوي ومهر اسمه عليهما، من تحت السدرة وزاحوهما غربا.

كانـــت اللجـــنة المكونة من ضباط إنكليز، يرافقهم نعوم بيك شـــقير، قد جاءت على زورق من القاهرة، استراحوا فى العريش لمـــدة يوميـــن، بعدها عاود الإنكليز ركوب زورقهم متجهين الى رفـــح، بيـــنما اصـــطحب نعوم شقير مشايخ البدو وسار بهم برا. وحين وصل رفح وقف قبالة الساحل ينتظر الزورق.

لم ير الإنكليز، أن هذه الطريقة البدائية كافية، وحدها، لوضع خط يفصل بين دولتين. ثم أن الإنكليز لا يهمهم أن يكون الحد الى الشرق قليلا أو إلى الغرب، فالذي يهمهم وجود مسافة، تفصل بين العثمانلـــي وقناة السويس. أما أولئك البدو، فقد كان لهم هما آخر.

أن تكون الحدود على مشارف مضاربهم الشرقية، حتى تكون كل أرضهم قطعة واحدة. وأن تفصل حدود ودول، بينهم وبين أعدائهم من القبائل الأخرى.

موقف الإنكليز، الغير حاسم بما فيه الكفاية مع الأتراك، جعل البدو يتبرمون. ولكنهم أخفوا تبرهم، وصمموا على اللجنة أن تتناول العشاء في مضاربهم. في الليل وبعد أن قُدم الطعام، كان شيخ القبيلة صامتا، فأراد نعوم شقير أن يعرف سبب امتناع الشيخ، عن مشاركتهم الكلام. فقام فرج (الذي هو عبد القبيلة وشاعرها) بتوضيح سبب صمت شيخه، في قصيدة طويلة جاء فيها:

يا بيك يا اللي على قدومك نشوف الخير
الحد هاته ع القبه وكرم الطير..

القبة وكرم الطير، بالضبط، هي الحدود الشرقية لمراعي القبيلة، أعجب نعوم بيك المساء الذي دحرجه الشاعر إليه، والتفت ناحية شيخ القبيلة، يطمئنه أن الحدود، ستكون تماما كما قال فرج. فنظر الشيخ لعبده بمودة..

هذا العبد حظي بشهرة واسعة، وصار يستقبل في مضارب القبائل، استقبال زعماء الصحراء وسادتها، فقد أصبح الناس يرددون أشعاره ويتغنون بها، ويخشون هجاءه، فصار لسان القبيلة والمتحدث باسمها، مما أهله لان يكون رجل المهام الصعبة. مثلا: حين جاء حمدان الملاحي (نسبة إلى قبيلة الملالحة وهي أحدى القبائل المستضعفة، ما أدري ليش!؟، في سيناء وفلسطين)

مستجيرا بالشيخ، ليسترد إبله، التي استولت عليها إحدى قبائل بئر السبع. طلب الشيخ من فرج أن يصحب المستجير، إلى مضارب من اغتصبوا الإبل، ويعرض على شيخهم الأمر.

في موعد الرحيل، عبرا البرية من رفح حتى بئر السبع، وصلا ديوان القوم مع غروب الشمس، فأجلسهما الشيخ مجلس العبيد ومستضعفي الصحراء. استكانا بصمت في مجلسيهما، وحين أراد الشيخ أن يركن إلى اللهو، نظر إلى فرج وسأله: انت يا عبد.. بتعرف تغني؟ أي والله.. بغني.. ياشيخ.. ناولني، يطول عمرك، هالربابة. رد فرج.

قبض فرج بأصابعه على الربابة. جردها من غطائها ولمس بأناملـه أوتارها. كانت القبضة واللمسة التي تلتها، تقولان بأن وراءهما محترفا؛ فتنبأ الجالسون بأنهم سيسمعون غناء، يتوقف له شعر رؤوسهم. قربها من النار لتسخن، ثم بدأ يسن عليها ألحانا مطروقة، حتى لمح الشيخ يتململ في جلسته؛ فأطلق لحنا مجنونا من عقاله؛ فتأججت الكلمات التي فيها من التحدي مثلما فيها من احترام المقام:

ياشيخ ياللي في المضاييق ننخاكْ
قم فكنا يا شيخ شحت علينا الختومِ
أنت الزريعي الكل يسمع بطرياك
مثل الثريا زايدة ع النجوم
أنت الزريعي الكل يسمع بطرياك
ريحك على الحكام ريح سموم

تحتك حصان مسه زغاريت
ولا رعد أول هبوب الوسوم
حمدان هذا من صغاياكْ
وانا عبدٍ للحج عيد البسومِ
عنده أجواد مكلفة مثل يمناك
ومحضرة لكل ساعة لزوم..

رفع الشيخ يده، فقفز أبناء العشيرة إلى العبد، ونزعوا الربابة مـن يديه، خوفا من تحول النغم عن التحدي، واحترام المقام، إلى الهجـاء، الـذي سـتردده الألسنة في الصحراء. انت فرج. سأل الشيخ. بشحمه ولحمه. رد فرج. قوموا عشوا الضيف. قال الشيخ موجهـا الكـلام لفرسان قبيلته. لا والله يا شيخ، ما يدخل عشاك بطونـا قبل ما تنفك إبل الملاحي. أقسم فرج. وهي مفكوكة. قال الشـيخ. أكل فرج والملاحي عشاءهما، وناما كما ينام السادة. في الصـباح سار معهما الشيخ يودعهما، هما ماشيان والشيخ مترجل عن فرسه، وحين أوشكا أن يخرجا من حدود قبيلته، وعدهما بأن تلحق الإبل بهما خلال أيام.

***

قـام عودة من فوق الحجر، وأقترب من السلك ينظر للجيبات العسـكرية، تمخر المدينة الساكنة، من الشمال إلى الجنوب، ومن الجـنوب إلى الشمال، في الناحية الأخرى. والجندي الإسرائيلي، القـابع فـوق الـبرج، يتحرك ضجرا. يعود ويضع المنظار على

عينـــيه، ثم ينزله، ليصفر بلحن، يسترده من ذاكرته، بعدها ينظر في ساعته متأففا.

جـــاء جندي الأمن المركزي يسوق النبي على عودة، أن يبعد مـــن هنا لأن الضابط هيمر دا الوقت، وبلاش تتسبب لنا فى أذية. وبيـــنما عودة يفكر في الطريقة، التي سيبعد بها الأذية، عن جندي الأمـــن المركـــزي، دون أن يفقـــد قدرته على مراقبة مدخل بيت إبراهيم الهمص وراء الأسلاك، وصل عساف، راكبا الموتوسيكل، بعـــد أن عـــبر النصف الجنوبي، من شارع صلاح الدين. يللا يا عـــودة، اركب وراي، مصلح العزامي جا. قال عساف. متى جا؟. رد عودة. اركب وراي نبعد عن هالمكان. قال عساف.

* * *

كان مصلح العزامي مع عشيرته، حين عبرت الحدود متجهة إلى إسرائيل. العشيرة، التي ينتمي إليها مصلح، واحدة من عشائر قبـــيلة العـــزازمة، التي تسكن صحراء النقب (سنرجع إلى الوراء خطوتيـــن؛ فحيـــن جـــاء الضباط الإنكليز، ليحدوا حدا بين مصر والشـــام. ثمـــة قبائل، ومن خلال علاقات متشابكة، استطاعت أن توحد أرضها. بينما لم تستطع أخرى ومنها قبيلة العزازمة، فألحق الجـــزء الأعظم منها بالشام وظل جزءا صغيرا في سيناء). أعلن بـــن غوريون قيام دولة إسرائيل، فأرسل الملوك العرب عساكرهم لتحرير فلسطين، وقامت حرب ثمانية وأربعين. تراجعت الجيوش العربـــية منهزمة، ومن بينها عساكر الملك فاروق. فاكتفى اليهود، تلك السنة، بالحد الذي خطه الإنكليز، ولم يتقدموا بعده.

بعـد الحـرب تحسـس الكل رأسه؛ فوجد العزازمة غالبية رؤوسـهم، وقـد صـارت داخـل إسرائيل. ولكن جزءا من هذه الرءوس، صار ينفذ عمليات جاسوسية، لمصلحة الأنظمة العربية، وزاد الطيـن بلـة، حيـن نفذوا عملية، كان نتيجتها قتل عنصر إسرائيلي، هو صديق لأخت واحد من ضباط الوحدة **101**؛ فقرر أريئـيل شارون أن يبيدهم نهائيا. في **1953** قاد شارون الوحدة **101**، وفي وضح النهار، أخذ هو ورجاله يطلقون الرصاص، في كـل اتجـاه، لا فرق بين إنسان وحيوان، وبعد نهب كل ممتلكات العـزازمة، أشـعل النار في بيوت الشعر، وطارد الفارين، بهدف تصـفيتهم نهائيا. لاذ من نجا، بأقربائهم الساكنين جنوبي الحدود. اسـتقبلتهم مصـر، وأعطتهم الجزء الملاصق للحدود من أرض أقـربائهم؛ لينصبوا خيامهم فيه، إلى أن تحين اللحظة، التي يقرر فـيها العـرب الهجوم على إسرائيل، وتحرير فلسطين. كان القسم الأول مـن العـزازمة متجنسـاً بجنسـية إسرائيل، والقسم الثاني مصريا، بينما ظل عزازمة **1953** بدون جنسية، ومن صلب أب من هؤلاء خرج مصلح.

وبـالفعل حانت اللحظة، ولكن إلى العكس، فاحتلت إسرائيل، فـي سـت ساعات، معظم الصحاري العربية، في حزيران سبعة وسـتين، ومـن ضـمنها صحراء سيناء، فامتدت الإمبراطورية الإسـرائيلية، من القنيطرة شمالا إلى القنطرة جنوبا. بُعيد الحرب، تفـرع عـن التقسـيم التقلـيدي، الذي قسم المنطقة إلى قسمين، إسـرائيليين وعرب، أن صار العرب نوعين: نوعا يحمل الجنسية

الإســرائيلية. والــنوع الثانـــي، وهم العرب المحتلون سنة سبعة وستين، حملوا هويات، لم ترد فيها خانة الجنسية، واستبدلت بخانة القومية، التي كتب أمامها، باللغتين العربية والعبرية: عربي.

***

الآن ســأخبرك، لماذا جن المشمار كفول، حين رأى هوية عســاف، جنون الشرطي مرده، أن عساف يحمل هوية من النوع الثانـــي، وهــذا النوع من الهويات لا يسمح لصاحبه بالتواجد في منطقة عسكرية.

***

اســتخرج العزازمة بطاقات من النوع الثاني. ودفع بمصلح أبــوه (وبحماقة ليس لها نظير) إلى المدرسة، وكان حريصا على ذهابــه. في أحد الصباحات، وبعد أن أكل مصلح رغيف الصاج، وشــرب صــطل الحليب، الذي تحلبه أمه كل صباح، من ضرع العــنز، تحت تعليمات الأب المباشرة، قام ولبس البنطلون، ثم خلع الجلــباب ولبس القميص، واستعد للبس الحذاء، الذي حفر أبوه في جنبــيه الداخليين، علامتين صغيرتين، على شكل مثلثين رأسيهما إلـــى أسفل، كي يميز مصلح بين اليمنى واليسرى من الفردتين. لم يجــد مصــلح الحــذاء؛ فذهــب للمدرسة حافيا. وحين وقف أمام الطــابور، لــيقرأ نشــرة الأخبار، كما يفعل كل صباح، وحتى لا يكتشـف أحــد حفاءه، دفن قدميه في التراب. وقف المعلم جواره وهمــس: أنــت حافي؟. آه. رد مصلح منكسا رأسه. اقرأ النشرة وعاود ع البيت. خايف من أبوي إن عاودت.

***

لا خطـــر علـــيك لو ظللت واقفا في مكانك ألف عام، ولكن الخطـــورة، التي لا يمكنني التنبؤ بأنك قادر على التحكم فيها، تبدأ حيـــنما تتحرك. سواء كانت هذه الحركة إلى الأمام أو إلى الخلف. وإن كانـــت الخطـــورة أكـــثر حين تتقدم خطوتين إلى الأمام، ثم تضطر أن تتراجع مرة ثانية لنفس المكان.

بعـــد حـــرب **67** وحصول عزازمة **53** على هوية، تقدموا خطوتيـــن إلى الأمام. بعدها جاءت اللحظة الكاسحة، التي تطلبت أن يعـــودوا الخطوتيـــن. كيف حدث هذا؟..مثلا: بالنسبة لمصلح مشت الأمور في حدها الأدنى، يذهب للمدرسة في الصباح، ويعود فـــي منتصـــف النهار، محتملا بؤسها، وقادرا على التحايل على حماقـــات أبـــيه، حتى اتفق السادات على أن تنسحب إسرائيل إلى الحـــدود، التي وضعها الإنكليز، حين كان دليلهم نعوم بيك شقير، بيـــن مصـــر والشام. وبالفعل سحبت إسرائيل قواتها، فرفع البدو رايات الحرية، وأعلام مصر العربية.. وغنوا فى سمارهم: النسر للجمهورية.. والباقي خرط ملوخية..

أعطـــت السـلطات المصـــرية عزازمة **1953**، الذين كانوا يرقـــبون بحـــذر، ورقـــة تعـــارف، مختومة من شيخين لقبيلتين مصـــريتين، تقول أن حاملها يعيش على أرض سيناء. وكان من أول آثـــار هـــذه الورقة، على مصلح مثلا، أن عملت له (اسكيب) مـــن المدرســـة. لأن حدود الاعتراف بها، محصور داخل نطاق مســـاحة الكيلومتريـــن، التي فيها مضارب قبيلته، أمّا إن فكر في

تجاوزها فسيقتاد إلى المخفر، إلى أن يأتي شيخ، واحدة من القبائل المصرية، ويتعرف عليه ويضمنه.

كـــان أقرباؤهم، من عزازمة ثمانية وأربعين، الذين أعطتهم إســـرائيل جنســـيتها، قـــد اندرجوا، مثل باقي عرب إسرائيل، فى عجلـــة الاقتصـــاد الإسرائيلي، وانتقلوا إلى فصل آخر من فصول الـــتطور البشرى. ولأن السكين لا تقسم الماء، فقد صاروا يرمون لأقـــربائهم، من وراء الحدود، بما يسد رمقهم. وهنا دخل عزازمة ثلاثـــة وخمسين عش الدبابير؛ فبدأت الحكومة في إيذائهم، وتجنيد بعـــض الأشخاص، من القبائل المصرية، جواسيس عليهم. فاشتد حنقهم، وكانت البداية، حين أردوا واحدا من الجواسيس قتيلا، ولمّا جـــاء أخـــوه، يبحـــث عـــن ثأره، ألحقوه به. كادت الصحراء أن تشـــتعل. لـــولا أن جلست القبيلتان (قبيلة عزازمة ثلاثة وخمسين والقبـــيلة التي ينتمي إليها الجاسوسان) وقرر المجتمعون، أن تدفع عـــزازمة ثلاثة وخمسين **200** ألف جنيه مصري، دية للشخصين (كـــان هـــذا قبل أن تتفق القبائل بأن من يعمل جاسوسا يقتل قتلة كلب ولا دية له).

انصاعت، قبيلة عزازمة ثلاثة وخمسين، للقرار. وقبل ميعاد الدفـــع بليلة واحدة، أودعوا المال في بيت كبيرهم، وأعدوا أنفسهم للـــنوم. قبل أن يأووا إلى مناماتهم، اشتعلت المنطقة، تحت أضواء كشافات الجيبات. فتشت البيوت، واستخرج المبلغ، ووضعه رجال الحكومـــة فى الجيبات، وقبضوا على البعض، ثم عادوا من حيث أتوا.

أشـــعل كبـــير العزازمة النار قُدام الديوان. وحين تجمع أبناء القبـــيلة، فـــاتحهم فى الأمر: باكر ميعاد الدفع، واللي وراه رقابنا تحـــت بواريـــد القوم، قولوا وش نسوي؟ لملموا أشياءهم سريعاً. وحملـــوا مرضاهم، وكبار السن في البطاطين. ثم عبروا متجهين الـــى الشـــمال. تخطـــوا الحـــدود، فقابلتهم الدوريات الإسرائيلية بالكشـــافات. ألزمتهم أماكنهم.. على الحافة الشمالية للحد. رحلونا لـــلأردن، اقـــتلونا، حطونـــا ف جهنب. بس لا تردونا ثاني. قال العزازمة بصوت واحد.

انقلبـــت الورطـــة علـــى رأس الـــرجل، الذي هاجمهم، بُعيد منتصـــف الليل بعسكره، إذ زعم الرجل في محضر تسليم المال، بأنـــه لم يجد سوى عشرة آلاف جنيه. ولولا أن له واسطة عظيمة الشأن في الحكومة، وهي نفسها التي أدخلته كلية الشرطة، لضاع المســـكين فـــي توكر. إذ أن المشكلة خرجت من حجر السلطات، وذهبت لمنظمات حقوق الإنسان.

***

الفـــارق بيـــن ســـيارتي، وسيّارة مصلح، ليس في الماركة، فالاثنتيـــن من طراز تويوتا. ولكن سيارتي تعمل بالسولار، بينما ســـيارة مصلح تعمل بالبنزين، سيارتي قديمة، سيارته حديثة جدا، ينفـــتح فـــيها الصباب الخامس أوتوماتيكيا حين يتجاوز مؤشرها المائـــة كـــم/ساعة. سيارتي لا تضفي عليّ أية مهابة عند رجال الأمن، حين يرون سيارة مصلح تركبهم العفاريت، سيارتي تويوتا عادية، بينما سيارة مصلح ومعها كلاشينكوف، طموح البدوي.

تلقف البدو هذا الموديل من السيارات، وفي مزايدة على الشركة اليابانية المصنعة، أطلقوا عليها اسم لاعب كرة القدم الشهير مارادونا، والسبب ليس تشابهها مع اللاعب الدولي، في صغر الحجم، والخفة والسرعة المتناهية، والقدرة على مراوغة الخصم فحسب، ولكن يبدو أن التشابه الأعظم بينهما، يكمن في علاقة كل منهما-السيارة واللاعب- بالمخدرات.

***

حين رسمت الجيبات الإسرائيلية بأنوارها، ما يشبه القوس، انحشر عزازمة **53** في نصف دائرة، قطرها خط الحدود. نجح بعض الشباب في التحايل، إذ ارتدوا إلى الخلف، اجتازوا الحدود وكأنهم عائدين إلى مضاربهم في سيناء. ثم ساروا بموازاة الحدود. وحين تعدوا طرف القوس، اجتازوا الحدود إلى إسرائيل، وكان مصلح واحدا منهم.

وبعد ثلاث سنوات ها هو يعود بسيارة، كانت السيارة المندسة في طرف سياج الجريد، المطوق به خيمة عساف، تبدو خلف الطين والرمل الملتصقين بجوانبها، والذين يكادان يخفيان لونها الأبيض، فاخرة وجديدة. أما الذي زادها جمالا، في عين عودة، فهو وجود تلك الماسورة بجانب شكمانها. هذه الماسورة، الموصولة بالكمبريسور، تستخدم في حالات المطاردة، أكانت مطاردة من السماء، أم من الأرض. تنطلق المارادونا، تواصل نهبها للأراضي الوعرة، ثم يفتح سائقها الكمبريسور، فينطلق

الهواء من الماسورة، على الأرض، عند مؤخرة السيارة؛ فيحولها إلى عاصفة، تفقد المطارد الرؤية والقدرة على التصويب.

عـرف مصـلح، حين سمع صوت الموتوسيكل، يقترب من البيـت، أن الذيـن فوقـه عودة وعساف، فأقبل من الخلاء، الذي يطـوق البيت، يمسح يديه فى التراب. شفت، اللعين، بيمسح ايده فـى الـرمل، حتى نقول كان بيبول. قال عودة. ما بيبول، مندس حتى يشوف الدني قبل ما تشوفه. رد عساف.

تصـافحوا. وبصـعوبة ولـج الثلاثة البيت، بسبب السيارة، المندسـة في السياج. نشر عساف المفرش على الأرض، فأزاحه عودة وافترش التراب، فلملمه مصلح ووضعه تحت وركه. هلا يا مصلح. وأيش جابك هالساعة. قال عودة. جئت لأراكم، والسجيج أقبل، وناوي أتصيد هالسنة، قال مصلح.

***

الكلمات التي يقولها جد عودة، حين يلعن: جرو، كلب، ظيخ، لفعـي (يسـتخدمها في وصف بعض الحريم)، جدي، عنز، تيس، حمـار، جحـش، غـراب، بومة، حدية، كبو، فلو، أبو الشويك، حربـي.. وحين يمدح: ذيب، نشمي، صقر، حصان، بكرة، جمل، بعـير، فهد، ثلب، هام.. يستخدمها حين يقول: خلك في دربك، ع طول، زي الهام.

تذكـر عـودة -الذي شرع في إعداد الشرك- هذه الكلمات، التـي يستخدمها جده في وصف الناس، وحين يصل عنده.. يغني: صـاحبي صقر. وأما الكبيدي رماه. لماذا لم يشبههُ بالصقر مثلا.

ثــم أن عودة يعرف الصقر، ولكنه لم يكن قد عرف الكبيدي، ولا كيف يرمي الصقر، الذي يبذل الإنسان مجهودا عجائبيا، ليوقع به، كثــير مــن الصبر والحيلة والصمت. فهذا الباشق، الذي لا يقرب مــنطقة -إذا جالها بعينيه الثاقبتين ورأى- فيها أثر لحمار أو كلب أو إنسان، لذا يضطر الصيادون -ولكي يواروا أثارهم عن نظره- أن ينصــبوا خباء، لا تظهر منه غير فتحة صغيرة، يراقبون منها الشرك المنصوب، انتظارا لمرور الصقر، ووقوعه في الفخ.

قــد يكون الشرك حمامة، أو طائر الكبيدي، أو أي شكل آخر مــن الشــراك. ولكــن الصيادين، وإمعانا في التلاعب بالصقر، يفضــلون الكبــيدي والحمامة معا. يربطونهما في حبلين طويلين، يثبــتون طرفي الحبلين في الأرض، ثم يرخونهما ليبدءا -كل من الحمامة والكبيدي- في الطيران. وحين يمر الصقر، ويرى المشهد مــن ســمائه العالــية، يحســب أن ثمــة مطاردة بينهما؛ فينقض كالصــاعقة علــى الكبــيدي، ليقضــي عليه، قبل أن يتوجه إلى الحمامة، وبأصابعه القوية والطويلة والجميلة، يفض صدرها، يأخذ قلــبها بيــن مــنقارية، ويترك باقيها للطيور والوحوش والكلاب الضالة، ثم يرفع رأسه، ويفرد جناحيه، صاعدا إلى حيث هبط.

أمــا الصياد؛ فيلصق الشرك على الكبيدي، عارفا أن الصقر ســتعميه، ثقته الفائقة في قدرته، على التحدي وحبه للاستعراض، عــن رؤية، الفخ على ظهر الكبيدى. رغم حدة النظر، التي وهبها الله، لهذا المخلوق.

لهــذا تقــع الصقور عادة في الفخاخ. قال عساف، الذي كان يشعل نار الصباح، مخاطبا عودة، الذي مايزال يعد الشرك. تقصد أن الصــقور يعميها كبرياؤها. رد مصلح، الذي كان يُحكم الغطاء علــى المارادونـــا، بعــد أن دسها تحت جذع سدرة، كي لا يراها الصقر، لحظة مروره فيتسامق.

أشــعل عساف النار، ووضع براد الشاي قربها. قام وملأ كفيه دقيقا، من شوال كانوا قد أنزلوه، من صندوق السيارة مساء أمس، قبل أن يخلد الثلاثة إلى النوم. وضع الدقيق في إناء ثم صب عليه المــاء، وبــدأ يلــوك الخلــيط بأصابعه، وحين تحول خليط الماء والدقــيق إلــى عجين، فرد طرف الكيس، الذي فيه الدقيق، على الأرض، بعــد أن ســواها، ثــم غطى الطرف بالطحين وأخرج العجيــن، وســواه علــى شكل قرص، وضعه على طرف الكيس المغطى بالطحين، ظل يوضب القرص بهدوء، حتى صار مدورا كالشــمس، وحين تحولت النار إلى جمرات، أبعدها بعصا في يده، وبعــد أن وضــع القرص مكانه، غطاه بالجمرات وتركه ينضج بهدوء، ملأ كفه سكراً، ووضعه في البراد، وحط البراد في طرف الجمرات. حينما بدأت الفقاعات تخرج من جوف البراد، أبعده عن الــنار ثم أخذ يتحسس القرص بالعصا، من أطرافه المختلفة، أبعد الجمــرات، وأخرج القرص، بعد أن قطع العصاة قطمتين، أمسك بكــل قطمة منهما في يد، ثم أدخلهما تحت طرفي القرص، ورفعه بهــدوء. قلــب القرص على الجهة، التي لم تنضج بعد.. وغطاها بالجمرات.. ملأ أصابعه شايا، وضعه في البراد، وقربه من النار.

تحســس الرغــيف- الذي لا يزال مدفونا تحت الجمر- من أطرافه ببقايا العصاة ، وحين تيقن من نضجه، أزاح الجمر جانبا، ثــم أتــى بحطبة كبيرة، ألقى بالقرص فوقها، ونفضه مما علق به بقطعـــة قماش، نظفه وقسمه إلى أربع فلقات، غسل ثلاث فناجين، وصـــب فيها الشاي، ناول لكل واحد من الشابين-عودة ومصلح- الذيـــن تحلقا حول النار فنجانا، ثم قرب كسرات الخبز من متناول أيديهمـــا، فـــبدأوا فـــي قضم الخبز وارتشاف الشاي. حين بدأت الشـــمس تتعالى، أهال عساف التراب على النار، وشطف الفناجين والبراد، ثم دسهما وشوال الدقيق تحت السيارة، ودخل الثلاثة إلى الخيمة.

تمـــدد عودة على بطنه، كان شبه عار من غير سروال يخفي الجـــزء الأسفل من جسده (ظب بطنك يا رجل).. قال مصلح ثم ذهـــب بعينـــيه إلى الفتحة، ليرى الخارج، وليرقب وشيشا سمعه يجـــتاح السماء. كان وشيش طائر عابر، لم يكن صقرا ولم يتوقف عند الشرك.

***

غابـــت الشـــمس؛ فسبق مصلح العزازمة رفيقيه، منسلاً من الخيمة، وتبعه -عساف وعودة- خارجين منها، توجه مصلح إلى سيارته، أدار محركها -ودون أن يشعل أنوارها، إذ لم يكن الظلام قـــد أطبق بعد- قادها إلى الشمال الغربي. ظلت السيارة سائرة - بينما مؤخرتها تهتز اهتزازات خفيفة- حتى توارت عن الأنظار.

فـتح عساف الراديو، وضبطه على إذاعة لندن، وقام عودة، وأحضـر حطـبا، أوقـد النار، علا اللهب.. فتراجع عساف إلى الـوراء.. ثـم أخرج كيسا بلاستيكيا، به تبغ ودفتر أوتومان، وبدأ يلـف سـيكارة، أشـعلها. أعاد دفتر الأوتومان في مكانه، ومده والكـيس إلـى عودة الذي أشاح بيده، ثم أدخلها في جيب جلبابة وأخرج علبة سكاير.. سلت سيكارة.. أشعلها واستلقى على ظهره، يتأمل القمر الذي أخذ يصّاعد جارا معه الزهرة.

***

أسـتطيع أن أتخـيل الرعب الذي طوى عودة، حين رأى كيس التبغ بين يدي عساف. وإن كنت أعرف أن إشعاله للسيكارة، ثـم استلقائه على ظهره، متصنعا نفث الدخان بهدوء، هو محاولة منه لضرب عصفورين بحجر، أن يداري خوفه وأن يعقلن/ يعلمن رعبه من القوانين.

رعبه من القوانين، يجلب عليه سخرية مصلح وعساف، الذين يردان السبب في رعب عودة بكونه ع الجسر الفاصل بين البداوة وغيرها. وبما أن عودة يعرف، من كثرة ترداد عساف للمعلومة، التـي حفظهـا عن راتشيل، عند أذنيه: أن البدو القدماء يقدسون الزهـرة، ويقـربون لها القرابين، ويعتبرونها بنت القمر، ومن ثم فهو حين ينظر إليها يقول، بشكل غير مباشر، لعساف: حتى وإن كانت القوانين ترعبني، فأنا لا زلت بدويا ولكنها بداوة أخرى.

***

كثـيرون دخنوا ذلك النوع من التنباك، جدي مثلا كان يدخنه فـي غليون كان في الأصل بزبوز، نزعه من براد صيني، وعلم عمـي التدخيـن، خصيصا كي يعتني بشتلاته. كان هذا قبل منع تدخين هذا النوع وزراعته.

أسـتطيع أن أتفهـم منع الحكومة لأي شيء (ألم تمنع إحدى الحكومـات أكل الملوخية من قبل؟) إلا أن الذي أجد صعوبة في فهمه، هو الكيفية التي تم بها منع تبغ ما.. تم زراعته في سنة ما. ثمـة نـوع من التنباك، هو الدخان العربي، يزرع كما يزرع أي نـبات شتوي، في أول شهر فبراير، ومن ثم يحصد في مايو. هذا عن نوع التبغ.. فأي سنة هي تلك.؟

وقـبل الإجابة على هذا السؤال، دعنا نتخيل أنك تعيش تحت حكـم دولـة، يجيز قانونها زراعة هذا الدخان العربي، ثم ابتعدت هـذه الدولة لسبب أو لآخر، وحلت محلها دولة ثانية، قانونها يمنع زراعـة التبغ. في مثل هذه الحالة، عليك الانصياع لقانون الدولة الجديدة.. جيد..

زرع الـناس فـي سـيناء التـبغ، وانتظروا حصاده، ولكن إسرائيل، التي لا تحرم قوانينها زراعته، انسحبت في إبريل. ماذا فعلـت مصـر حيـنما حلـت محلهـا؟. وأرجو ألا يغتاظ غير المصريين، فأنا أتيت بمصر مثالا لأنها، ولا شك أن الكل يعرف، دولة قديمة، أقدم من كل الدول، سواء تلك التي قامت بعد معاهدة ويستفاليا أو قبلها. ومصر لها حضارة بعيدة بعيدة، أبعد مما يتخيل مـثلا حمـدان أبو كايد (لماذا حمدان؟ لأنه يقول: أني تعاملت مع

مايـــة دولـــة ف هالدنـــي، ما دولة منهن خلت ظهري يعرق، من الخوف، غير مصر).

وتـــاريخ مصر ضارب في عمق الزمن، رغم أنف الملعون zaky sugar الكـــردي التركي، والذي إن قبضتُ عليه سأحفر لـــه في عرض الصحراء، وأهيل عليه التراب، لأنه يضيف على الســت آلاف ســنة، التـــي قالها السادات، أربعة أخرى (بخشيش حســب تعبـــيره) .. وحتى لا يأخذني الحكي بعيدا، والحكي كما تعرف ذو شجون، نعود للتبغ وزراعته.

لأن القوانيـــن المصرية، تحرم زراعة التبغ، جردت مصر، حملات هائلة، لتجريد البادية من تبغها. عساف يرى أنها وجدت، في هذه الحملات، مظهر من مظاهر قدرتها على القمع والإبادة.. ويضـــيف: كانوا في كل حملة يلوحون بإصبعهم، إننا نمتلك القدرة على الإيذاء، و لمزيد من السحق، والكلام لعساف، كانوا يجبرون صـــاحب التـــبغ على قلع تبغه بيده.. أحدهم كان يقلع النبتات وهو يصـــيح: تحـــيا مصـــر.. فزغده الضابط: قولها من قلبك يا شيخ العرب.. انتهى كلام عساف. أما عودة، ففي كل مرة وما أن نفتح الموضـــوع، حـــتى يفاجئنا بقول مختلف. ولكني أقدر على إجمال أقواله، في ثلاثة راكبة فوق بعضها، مثل طبقات التاريخ:

الأول قالـــه وهـــو مـــتمدد علـــى بطنه، يضبط الشريط في المســـجل، علـــى أغنـــية أبـــو بكر سالم (لا تنادي): لو قالت لي الحكومـــة تعـــال، يـــا شـــيخ العرب، قل رأيك، فسوف أهبط من مضاربي حافياً، آخذ درب السلطان (وحتى لا تزعل مني الحكومة

ســأقول طــريق حورس) جرياً حتى أقف أمام بابها، ولأن بلاط الحكومــة لــيس به تراب، كي أدفن قدميّ فيه، مثلما فعل مصلح، وهــو يقرأ نشرة الأخبار، في طابور الصباح، فسوف أدس قدميّ، تحــت ســجاد الحكومة الأحمر، ومثلما تكلم موسى، في حضرة الفرعون، بكل أدب، سأقول: يا حكومة.. دعي الناس يحصدون، تــبغهم هــذا العــام، ومن يزرع تبغا بعده، ارميه تحت عجلات الدبابــات، تمامــا مــثلما رميتي كل أعداء مصر (وحتى لا تعتقد الحكومــة أنني أقصد إسرائيل فسوف أضيف فورا) عدو مصر يا حكومة هو الحفاء.

الثانــي قالــه، وهــو يُحضر الأكياس، ليأتي بتموين الكامب الأســبوعي مــن نويــبع: لمصر حكومة خبرتها ستة آلاف عام، ولكــنها خــبرة في إدارة الترع، ومصارف المياه، لذا فإنها حين لقيــت بشــراً، تربســت آلاتها. ولأنها عاجزة عن رؤية المشهد بأكملــه، وجدت نفسها تتحرك من كثيب إلى كثيب، وستجد نفسها بآخــره، وقد زلت الدرب، تغوص في كثيب منها. أما رأيه الثالث فقاله لي حين كان جالساً جواري في الكابينة، بينما يتمدد عراة في صندوق السيارة خمسة سياح، ثلاث بنات وولدان، حين سألته عن رأيــه فــي الموضوع، نظر إليّ من وراء دخان الطرينة، وقال: رأيــي ســأطويه جيدا، ثم أدسه في منطقة آمنة من رأسي. وحين يأتي الصيف، سأختار ليلة خمسة عشر، من شهر قمري، واجلس على ركبتيّ، وكأني في وضع الصلاة، سأنحني إلى الأمام، وحين

أصـــير متكئا على كوعيّ، أخرج المطويّ في رأسي، وأدسه في أذن عساف.

***

كف عودة عن النظر إلى القمر، حين سمع صوت المارادونا. تدلى مصلح من وراء المقود، والتف نحو صندوقها، ثم أقبل، يجر غزال ذبيح من أذنيه؛ فقفز عودة يعد النار لاستقبالها.

(رأيـــتُ هذا الغزال، يقفز من تحت مثنانة وينطلق، طاردته، وكنـــت أكدمـــه كدمـــات خفيفة، بمقدمة السيارة، حتى توقف عن الركض، تناولته، تذكرتُ أن ليس معي سكين، ففصلت رأسه عن جســده بحجــر) قال مصلح، ثم أشاح بوجهه، مسلطا عينيه، على جــبل صدر الحيطان. نظر رفيقاه إلى حيث نظر؛ فرأوا النار عند قدمي الجبل. وضع مصلح نعاله في رجليه، وتوجه نحو السيارة، التي لا يزال محركها يضج بالصوت. اذهب على قدميك، حتى لا تثــير سيارتك، التوجس للموجودين عند النار. قال عساف. همهم مصـــلح، الذي تذكر حجم الشك، الذي سيركب رؤوس المتحلقين حـــول النار، حين يروا ضوء سيارة أو يسمعوا صوت محركها، آتـــيا من بعيد. قم وأطفئ المحرك.. قال لعودة وبعد نصف ساعة، اتـــرك عســـاف، يشـــوي الغزال واتبعني، سأكون بينهم، وحينما تصل، سأعزمهم على العشاء.

***

بيـــنما يمـــتلىء أنف عساف، برائحة الشواء، تذكر تلك المرة الأولـــى، التـــي شوى فيها اللحم، من سنوات مضت شوى جديا.

جــاءت راتشــيل بخمسة عُصيات ناشفة وقوية قطعتها، بسكينها المخـتوم بعلامــة التساهال، من شجرة سدر. حفر عساف حفرة ملأها حطبا، وأشعل فيه النار، ثم تناول أربعة من العُصي، وعقد كــل اثنتيــن منها، فصارتا مثل حرف X. غرزهما على جانبي الــنار، وأدخــل العصاة الخامسة، من رقبة الجدي، وأخرجها من مؤخــرته، بعــد أن سلخ جلده، ونظفه من كرشه، ثم حملاه -هو وراتشيل- كل من طرف، وثبتا طرفي العصا، فوق العقدتين.

كانــت راتشــيل، واحدة من الذين يترددون على الكافتيريا- التي على شكل باص- والمنتصبة أمام المعسكر، حين كان عساف هــو المدير والعامل والسقاء فيها، تأتي وحيدة في الغالب، تختار ركــنها بهدوء، تطلب صفيحتي مكابي، تشربهما، ثم تطلب الثالثة، أحــيانا تصــبها فــي جوفها، وأخرى تدسها في حقيبتها الخاكي، وتنتصــب واقفــة، تعلــق حقيبتها على كتفها، تدفع الحساب، ثم تنسحب، مخلفة صفائح المكابي الفارغة، فوق طاولة البلاستيك.

اقــترب منها عساف حين جاءت متأخرة، وقبيل موعد إقفال الكافتيريا بقليل، ليلتها كان عساف قد نوى السهر، فتحت راتشيل، كعادتهــا، الثلاجة وحين لم تجد طلبها سألت: ما فيه مكابي؟. رن صوتها في أذن عساف.

- بــاروخ هابــا.. قال لها، وهو يتناول صفيحتي مكابي، مندستين في قعر الثلاجة.

- أخلـــى فـــ أخلى.. صاحت، حين انطلق، صوت وشيش البـــيرة صاعدا، عندما أدخل عساف إصبعه، في الحلقة المعدنية، للعبوة ونزعها.

- أخلى فيمئود أخلى. قال وهو يناولها العلبة المفتوحة، بعد أن نزع الحلقة المعدنية، التي تغطي الثانية، وقربها من فمه، وعب منها.

- أريد صفيحتين. قالت.

- كنت أحتفظ بهما لنفسي.. ولكن عز علي أن تعودي دون أن تشربي..

- تودا لخَ.. قالت.

***

كـــان القمـــر يرســـل أشعته الكثيفة، على سطح الجبل، فيما الأحجـــار –المـــتعدد لونهـــا– تلمع حين تعانق الأشعة، سطحها الأملـــس، فتـــبدو مثل لوحة صامتة، وألسنة النار المتصاعدة، من الحفـــرة تشـــوي اللحـــم، وعساف الذي يُدوّر العصا، الداخلة من مؤخـــرة الجـــدي والخارجة من فمه، بين لحظة وأخرى يراقب راتشيل، المتمددة على ظهرها، تنظر إلى السماء، وتدندن بكلمات أغنية يمنية.

لقد سلب هذا القمر، عقول أجدادي، منذ ثلاثة آلاف عام، لمّا مروا من هنا، في طريقهم إلى أرض كنعان؛ فظلوا يدورون حول أنفسهم، أربعين سنة. ثم أخذوا معهم، إلهكم ولغتكم ورحلوا. قالت راتشـــيل، التي امتلأ أنفها برائحة الشواء، فتذكرت الساندويتشات،

التي كانت ترميها في سياج البروشيم، حتى لا يسخر زملاؤها في المدرســة، من الأكل العربي، الذي تعده لها جدتها، حتى تأكله في الفســحة. قلــت لــي أن يهوه رب الزلازل، والبراكين في سيناء القديمة. فما حكاية الحروف؟ قال عساف. وبعد لحظة من الصمت قالت: اكتب عساف بالعبراني، ثم انظر إلى هذا الهلال الذي فوق رأســك، وقارن بين الحروف وبينه، ثم تذكر العصا، التي أعطاها جدكــم، جوبــاب بــن رعوئيل المدياني، للنبي موسى وستعرف قصــدي. كل حروفنا، مكونة من هلال وعصا. القمر هو السين. والســين هــي سينياء. سينياء هي سيناء. أما العصا فعصى جدكم جوبــاب. عند هذا الحد أرتبك عساف؛ فهذه المرأة تكاد تُكسر كل ما أعتاد الفخر به، قبيلته ومآثرها، لتخرج من صلب التاريخ فخر آخر. ولأنه لم يقدر على مجاراتها، استند على راحتيّ يديه وهب واقفا. أنقذه وقود النار الذي شارف على الانتهاء. بحث عن حطب يضــعه تحــتها، كــي تواصل الشهباء (كما يحب دائما أن يصف الــنار) شــعللتها، فلحقت به راتشيل: أعرف مكانا مليئا بالحطب، رأيته قبل الظلام، وأرجو أن نقدر على الوصول إليه.

وضــع عساف الحطب في النار، واتكأ ينفخها، فعابث الدخان المتصاعد لحيته، وغطى وجهه فدمعت عيناه، مسحهما بظهر يده وفــركهما بأصــابعه، ثم التفت إلى راتشيل: كان أبي، وهو رجل بدوي قاسي جدا، يعلمني إيقاد النار أكثر مما يعلمني الصلاة، فأنا لا أذكــر يومــا وقــف على رأسي يعلمني الوضوء، ولكني أذكر الــتقريع، الــذي يصبه فوق رأسي، حين أفشل في إيقاد النار. في

الحرب العالمية الثانية، أعيا جدي الإنكليز، كان يشعل النار، أمام بيـــته، الـــذي نصـــبه فوق أعلى مكان، كان الإنكليز، يأتون على خيولهم، يشيرون إلى الطائرات في السماء، ويقولون: هتلر. بينما جدي يشير إلى النار ويقول: ضيف.

***

ســـحب الضوء، المنبعث من كشافات المارادونا، عساف من ذكـــرياته، وألقى به مرة واحدة على سطح الواقع. حدد له مصلح دوره بكـــل دقـــة: أن يشـــوي الغـــزال، وينتظر حتى يذهبا للنار المشتعلة عند قدمي الجبل ويعودان.

حضـــرا إذن يـــا عساف. قال لنفسه ونظر إلى ضوء السيارة يعلـــو علـــى شـــكل عموديـــن، يشقان ظلمة الفضاء، ثم يهبطان، ليحطمان قدرته على النظر، كان الضوء يصعد، كلما أرتفع رأس المارادونـــا، ويـــنزل كلما هبطت مقدمتها، في حركات فوضوية ومتتالـــية، بســـبب النـــتوءات الرملية، النابتة على سطح السهل، المنبطح من الأرض، الذي تواصل المارادونا نهبها له.

طوقت المارادونا المكان بأنوارها، من صندوقها الخلفي تدلى مصـــلح، وفـــي يـــده كيس أبيض، ملفوف على شيء، لم يستطع عســـاف، الذي كان جالسا على ركبتيه جوار النار، يعتني بالغزال الذبيح فوقها، أن يتبينه، وضع مصلح الكيس جانبا، ثم امسك بيدي رجـــل مُســـن، وبدأ في مساعدته على النزول، من الصندوق. من الكابينة هبط عودة، الذي كان وراء المقود، ومن الباب الآخر هبط

رجـــل، اســـتطاع عساف أن يتبين أنه في الخمسينيات من عمره. تحلق الأربعة حول النار، بعد أن صافح عساف الرجلين.

ما أخبار هذه التي على النار ياعساف؟ سأل مصلح.

سأعدها حالاً.. هات الماء ليغسل الرجال أيديهم. رد عساف.

هات البراد يا عودة. قال مصلح الذي قام ليحضر الماء.

.....

بعـــد العشاء تناول أحد الرجلين، الكيس الأبيض وأخرج منه ربابـــة، وضعها قرب النار. وبينما عودة يصب الدور الأول من الشاي، أخذ الرجل الشفطة الأولى وتناول الربابة، مسدها بأصابعه بهـــدوء وحميمـــية، وجرب لحنا. هز رأسه بتبرم ووضعها جانبا، ليشـــفط من فنجان الشاي ويعيده على الأرض، ويقرب الربابة من النار، لتقدر على استيعاب اللحن.

تســـلل الـــدفء بيـــن أوتارها؛ فبدأت في بث همسها، ابتسم الـــرجل ابتســـامة خفيفة- لمعت على إثرها أسنانه الفلجاء، شديدة البياض، حين انعكست عليها الأشعة، التي يرسلها القمر- فانطلق اللحن حزيناً ومدوياً:

....

يا طيور حومة يا طوال الصناقير
أوصيكن ع لحم فهيد لا تنقدنه
كم عودة طوح لها الرمح تطويح
وخلِّى اللحم لعشوشكن تنقلنه
يا سربتك يا فهيد سيوف مصاقيل

خيط الشعر يا فهيد ما يقطعنه

(....)

- هذا مسلم الهيب من الأردن يا عساف. قال مصلح.
- مرحب بالشيخ مسلم. قال عساف.
- مسلم الهيب جاء عابرا، أردني مهاجر من النقب. قال الرجل الثاني.
- من بئر السبع يا شيخ مسلم..؟ سأل عساف.
- أي نعم.. من بئر السبع.. من قبيلة الحويطات. رد مسلم الهيب.
- رحلت إلى الأردن سنة **48**.. ولم تلحق أن ترى عودة ابن تايه. قال عساف.
- رايته.. رايته مسنا.. فالرجل كبر حتى تعدى التسعين. رد مسلم الهيب.

***

".. في يوم من أيام نيسان، دخل رئيس التشريفات على فيصل، وهو مجتمع بلورنس، في جلسة مهمة، وتقدم نحوه بحماسة ظاهرة، ليهمس في أذنه خبراً، كان يعرف بأنه سيسره جداً. والواقع أن لورانس، لم يستطع أن يخفي شعوره بالسرور- فور معرفة الخبر- بالرغم من الجهد الذي بذله، لضبط أعصابه وكتم مشاعره، وقال بلهفة: ماذا تقول؟! أعودة هنا؟! اسمح له بالدخول فوراً.

أزيـــح ســـتار مدخل الخيمة، ودخل رجل طويل القامة، قوي البنية، ذو وجه كوجه الصقر. كان عودة ابن تايه، واحداً من كبار زعمـــاء قبيلة الحويطات، وواحداً من زعماء القبائل، الذين كانت حـــياتهم أقرب إلى الأسطورة. عشائر الحويطات، تفخر بأنها من الـــبدو الخلص، وكان عودة نموذجا لسيدهم. فهو مشهور بضيافته السخية. وأبقاه سخاؤه فقيراً دوما، بالرغم من فوائد غزواته، التي قـــدرت بمائة غزوة. تزوج ثمانية وعشرين مرة. وقام بقتل خمسة وسبعين رجلا، خلال المعارك التي خاضها، ومما يذكر أن الشيخ عـــودة، صرف حوالي أربعين عاما من حياته، في شن الغزوات ضد الأتراك.

ويقـــال أن الشيخ المحارب الشجاع، والذي حنكته الأيام، كان ســـريع الغضب حاد الطبع، لكنه قوي الإرادة، بحيث يستطيع أن يضبط أعصابه، ويكتم غيظه متى شاء. كذلك يقال أنه كان سريع اللجـــوء إلـــى أعمـــال العـــنف والـــبطش. ومقابل كل ذلك، كان متواضـــعا، صريحاً، أميناً، مخلصاً، طيب القلب، وكان أصدقاؤه وأعداؤه على السواء، يكنون له كل مودة ومحبة وتقدير.

لبث الشيخ عودة ابن تايه واقفاً، في الخيمة بضع دقائق، دون أن ينـــبس ببنـــت شفة، وكان خلالها يتبادل وفيصل، الابتسامات والـــنظرات المفعمة بالمودة، والأمل والتفاهم. وبعد لحظات، تكلم الشيخ عودة، وقال: سلام الله على سيدنا، وقائد المؤمنين..."

* * *

فــي فيلم لورنس اوف اريبيا، سيظهر لورانس، وهو يشارك العــرب تمردهم ضد تركيا. لنزيح الفيلم جانبا. لأنه لم يكن يعني عســاف مــنه، حيــن ذهب للسينما خصيصا كي يراه، غير تلك اللقطــات، التي يظهر فيها انتوني كويني في دور عودة ابن تايه. فالغزوات التي قام بها، وضروب الشجاعة والبطولة، التي أبداها، يتناقلها رجال القبائل، ويروون وقائعها وأحداثها، إلى أولادهم.

تذكــر عساف أمه، حين كان صغيرا، تحكي له كيف أمسك عــودة ابــن تايه بالحجر، وكسر أسنانه الصناعية، التي أهداها له التركـــي، حــتى لا يأكل من طعام (سيدنا وقائد المؤمنين) بأسنان تركــية؛ فأحكم ربط عمامته على رأسه، ثم تناول مفاتيح السيارة، من قدام مصلح، وتوجه إلى شجيرات السدر، المتناثرة في السهل. مــن بعيد، وعلى أضواء كشافات المارادونا، رأى الخِرَق، ذوات الألوان الكابية، مربوطة على غصون الشجيرات.

يقــول الكــبار: كان رجلا صالحا يتكىء وحيدا على عصاه، فيما إبله تنداح في الوادي، تقتات من نبتات صغيرات، من المثنان والدوم والسدر والشيح يسقيهن الطل، حين أطل عليه الفتيان: أنت يــا رجل. تعال هني. لم ينبس ببنت شفة، وقدم من لحظته. صفعه أولهم، ودفعه الثاني على وجهه، واستل الثالث سيفه.

وضــع الفتى السيف على رقبة الرجل؛ فتجمدت يد الغلام في مكانها. تناول الفتى الثاني السيف، ودفع الأول بعيدا، فأبى السيف أن يــتحرك على رقبة الرجل.. فصاح الفتى الثالث: اتركوه.. لا شأن لنا به، فالرجل، لابد، من أولياء الله الصالحين.

أنبه صاحباه على دروشته، فرفع الشيخ رأسه قائلا: يا وليدي إن كنـــتم تريدون الإبل؛ فخذوها ولا تذبحوني. وإن كنتم تريدون مـــالا، فـــلا مال عندي. وإن كنتم لا مناص ذابحيَّ، فسيفي هناك، ولكن.. رجاء: لا تمضوا، وتتركوا جثتي تنهشها الضواري.

اندفع الأول نحو الجهة التي أشار إليها الشيخ. وأتى بالسيف، وضع السيف على رقبته، وبحزة واحدة، فصل الرأس عن الجسد. حيـــن اندفع الدم عاليا، من رقبة الرجل، التفت الفتيان نحو الإبل، فـــرأوها، وقد تحولت إلى شجيرات من السدر، بنفس حجم الإبل. الحوار سدرة صغيرة. والناقة سدرة أكبر مائلة نحو الامتلاء قليلا. الجمـــل سدرة أقل من الناقة في الحجم، وأميل قليلا نحو الطول.. زارهـــا عساف مع أمه صغيرا، وأوصته بزيارتها، حينما علمت بنيـــته الخروج للصيد. سيجعل الله رزقك وافرا، وسيرضى عنك إن زرت الشيخ حميد. قالت.

* * *

مسد مسلم الهيب الربابة، وأسكنها كيسها الأبيض بهدوء، كان مســـلم واحدا من كبراء قومه، قبل أن تكثر عليه الديون، ويعجز عـــن ســـدادها، فهداه تفكيره إلى أن يعود إلى حيث الموهبة، التي حبـــته بهـــا الســـماء، فهو واحد، وفق ما يصف نفسه، من أحسن عازفـــي الـــربابة، فـــي صحراء شرق السويس. بدأ يجوب هذه الفيافي، حيث يتمركز صائدو الصقور، الذين يقولون الشعر، بحثا عـــن واحد منهم يكتب له قولا في القذافي؛ يغنيه له على الربابة، عله يحصل على أعطية من العقيد، تعيد مجدا كان له. ماذا تتوقع

أن يعطيك العقيد يا شيخ مسلم؟ سأل عودة. يمكن العقيد يعطيه سيارة مرسيدس مثل اللي اعطاها لعوض المالكي. قال مصلح. وكيف ستدخل بها الأردن يا شيخ مسلم.. وأنت لا تقدر على دفع جمركها؟ سأل عودة. سأضع عليها لافتة كبيرة، وأكتب على اللافتة. السيارة هدية من العقيد القذافي، ليقول ملك الأردن في نفسه: العقيد ليس أكثر كرما مني، ويوافق الهاشمي على إدخالها المملكة دون جمارك.

***

في الليلة الثانية، أخذ عساف مفاتيح المارادونا، وانطلق بها. أنعشته الرائحة العطرية، التي تسللت إلى أنفه، من النباتات المتناثرة في قاع المجرى، الذي يمتد، كأنه خط أسود متعرج، على صفحة الخلاء المترامي بين يدي الجبل، وبان الحصى متناثرا على سفح الوادي، حين تساقطت عليه أشعة القمر. أوقف السيارة وهبط منها يتأمل المجرى: ليس واديا بل صدعا، تتجمع في بطنه، المياه الآتية من جهات عدة، في هذه اللحظة، راودت عساف رغبة في أن يمسك بحصاة، ويقذف بها عاليا وبعيدا، لتستقر في قعر المجرى. ولكنه أسكت هذه الرغبة، حين رأى السنة اللهب تتهادى من بعيد، فيما مسلم الهيب يسخن الربابة، على زخم الحرارة، المتصاعدة من النار.

عاد عساف إلى السيارة، وقادها إلى حيث يرى النار. وضع مسلم الهيب الربابة على وركيه، قبل أن يشير بيده، رادا على تحية المساء التي ألقاها عساف، ثم أشار عليه بالجلوس إلى جانبه.

صب الرجل، الذي لا يزال ملثما، في قعر الفنجان قليلاً من الشاي وشطفه به، ثم ملأه شايا ومده بيد مرتجفة نحو عساف، الذي اقترب متناولا الفنجان، وهو يقول: عشت. أما مسلم الهيب؛ فقد مد الربابة، بحيث صارت رقبتها فوق ساعده، واتكأ قعرها على زنده، ثم مسد (بالمسن) أوتارها؛ فانطلق اللحن رائقا وشهيا، تنحنح قبل أن يغني:

عمي يا وطفان ما بي خلاف
وابكي صبي تدفق السمن يمناه
عمي يا وطفان ما بي خلاف
وابكي صبي يذعر الخيل طرياه
يا ونتي ونة ثلاث الهرافي
اللي جلود حيرانهم مبواه
يا ونتي ونة عجوز كبيرة
شافت ولدها سبق الخيل تنحاه
يا ونتي ونة شايب على الدار
والبدو شايل عنه وخلاه
يا ونتي ونة طير الخلا لو انطاح
والدم من كل الجوال يبراه

عند هذا الحد زام الرجل الملثم، فوقع اللثام عن وجهه، ارتفع قلب عساف وهبط عند رجليه، لمّا رأى وجه الرجل. ليلة مضت، وهذه الثانية. وعساف لم يتوقف لحظة واحدة، ليسأل نفسه، من هذا الرجل، الذي اتخذه مسلم الهيب رفيقا، في هذا الخلاء؟.

لــم يكــن الرجل غير (عليّ حيل) ذاته، ما الذي أخرجه إلى ســطح الأرض، بعد أن راج خبر فقدانه من سنوات، البعض قال مات، والبعض قال ابتلعته وحوش البرية. من أي سماء وقع، ومن أي أرض نبت، بعد كل هذا الغياب.

كانــت أرض (عليّ حيل) مقسمة إلى نصفين، النصف الأكبر مــنهما شــمال الحــدود، والنصــف الآخر جنوبها. ولكي تتضح الصــورة سنرســم مــربعا. سنة **1906** سينقسم هذا المربع إلى نصــفين، لنسميهما المربع **1** والمربع **2**، سيكون المربع **1** ملحقا بمصــر، بينما يلحق المربع **2** بالشام. سنة **1948** سينقسم المربع **2** إلــى قســمين، لنسميهما **2a** و**2b**، الأول سيتبع إسرائيل، أما الثانــي فسيكون تابعا لقطاع غزة. سينتج عن هذه الحالة أن يزرع علــيّ حيل المربعين **1** و **2b**. سنة **1982** سُيمنع عليّ حيل عن المــربع **2b**؛ فيأتــي بسيارة محملة بالبراميل من فاقوس، يحفر- تحت الحدود- نفقا من البراميل، ويلجه كل صباح إلى أرضه في قطــاع غــزة، يــرعاها ويعود في المساء إلى بيته، حتى غرقت دوريــة الإســرائيليين فــي الــنفق. على الفور وصل الخبر إلى الحكومة في مصر. في الليل اقتادوه، لا أحد يعرف إلى أين. علا صوت مسلم الهيب من جديد:

يا ونتي ون الظمايا على البير
وحيضان يبس وصفيهن تلظاه
بالله تجيبوا مفرشي واللحاف
وهاتوا هوية الزمل مشية مداناة.

صـــب ليـــنا شاي يا عليّ يا خوي. قال مسلم الهيب مخاطبا عليّ حيل، الذي أعاد لف اللثام على وجهه فغطى ما تحت عينيه.

ولكن.. قل لي يا عم عليّ.. غبت أيام طويلة، وين كنت؟ قال عساف.

قــل لـــي.. تـــبع مـــن أنـــت يا صبي؟ رد عليّ حيل بقرف واستعلاء.

***

أي إهانة، أهينها عليّ حيل، جعلته يتيه في الصحراء، مخفيا الوجـــه الـــذي أهين، وراء اللثام، إلى أن يثأر أو يقع، في عرض الصـــحراء، ميتا تأكل جثته الضواري. في الليلة التي قبضوا عليه فيها، اقتادوه إلى دهليز تحت الأرض. كان الضابط لحظتها قابضا علـــى عـــرعور عليّ حيل. لماذا عرعوره.؟ لمزيد من الإذلال. العـــرعور يسميه المصريون القفا ويضفون عليه شرفا لا يقل عن الشرف الذي يضفيه جيرانهم على الأنف والوجه إن لم يكن أعلى.

مـــن أين للقفا كل هذا الشرف؟ قبل الإجابة، لابد من الإشارة إلـــى تلـــك المـــنطقة، التي يتقاطع عندها كل من البدوي والفلاح (المصـــريين). الأول يختار قمة كثيب، ويقيم فوقها خيمته، ويعلق عليها الراية البيضاء، ثم يشعل النار أمام الخيمة، بينما يأتي الثاني جـــوار جدول ويقيم عشته، وعلى حافة الجدول، يشرع في إنبات حياته (جرير.. بقدونس.. كزبرة.. الخ).

الأول مســـتعد لـــتقديم حياته ثمنا لحريته. بينما الثاني مستعد لتقديم حريته ثمنا لحياته. ومن هذه المنطقة، بالضبط، يتم اصطياد

الثانـــي..كيف؟ يتوالى الجباة، وتتصاعد الضرائب، والفلاح يقابل هذا التصاعد، بقدرة عجيبة على الصبر والانحناء، مادامت الجباية أقــل مـــن أو تســـاوي ما تنتجه الحياة، إلى أن يأتي جاب غبي، وتصـــير الجباية أكبر من الإنتاج، حينها يشعر الفلاح، أن الخطر يطال الحياة نفسها، عند هذه اللحظة بالضبط تشتعل جهنم.

الجـــنرالات من الجندرمة والمماليك، عند جبايتهم للضرائب، يرصـــونهم في صفوف، وكل من يدفع الضريبة يختم على باطن يده.. ولكن، ولأن الضرائب تجبى في موسم الحصاد، يعرق باطن اليد، فيسيح الحِبر. ومن ثم يختلط الذي لم يُختم، لأنه لم يدفع بعد، بذلـــك الذي خُتم لأنه دفع. تفتق ذهن الجندرمة عن طريقة جديدة للخـــتم، أن يخـــتم الرجل على قفاه، ولأن ياقة الجلباب تحك الختم حـــتى تخفيه، فيختلط الحابل بالنابل، أصدر الجندرمة أمرهم الذي يقضي بأن يلبس الفلاح ثوبا لا ياقة له.

كانـــت دفعـــة الضـــابط قوية جدا، بحيث قذفت بعليّ حيل، المتعـــب والمـــنهك علـــى إثر التحقيق، مرميا على وجهه داخل الدهليز، حينها نادى الضابط ع المساجين: ده يا رجاله ضيف من ســـينا.. مـــن هناك من عند اليهود.. والنبي يا رجاله.. ما تنسوا تقدمـــوا لـــو الواجب.. ثم أطل بوجهه من وراء الباب الموارب: افـــتكروا، والنبي يا رجاله، القهوة.. القهوة مزبوط .. أصلو جاي مـــن عـــند (ثـــم وضـــع يديـــه حول فمه حتى صارتا كسماعات مـــيكروفونات الباعة الجائلين) اليهووود.. واللي جايين من هناك بيحبوها مزبوط.

فـــي الـــيوم الثانـــي، وبعد أن شرب عليّ حيل، القهوة التي أوصـــى بهـــا الضابط، اقتادوه من القبو، معصوب العينين ويداه مربوطـــتان وراء ظهـــره. قذفوه في صندوق سيارة، مع مساجين آخرين، وأقفلوا عليهم الصندوق.

أنـــزلوه من السيارة، وأدخلوه في قبو آخر، ارتمى مثل جرو فـــي طرف القبو، جلس مفترشا البلاط ومتكئا بظهره إلى الحائط. مســـح وجهـــه بيديه الاثنتين. اقترب منه أحدهم، رمى له ببطانية سوداء قذرة ليجلس عليها. استطاع أن يتبين بوضوح لهجة الرجل الـــذي أعطـــاه البطانـــية، ولكـــنه لم يستطع أن ينطق. جاء آخر بصفيحة نتنة بها ماء، صب على يديه، وطلب منه أن يغسل وجهه ويبل ريقه، ثم عزم عليه بسيكارة.

***

قفز عليّ حيل في الصباح مفزوعا، على طرقات عنيفة على الـــباب، كان رجلا ضخما يطرق الباب، وهو يصيح: كله يصحا. كلـــه يفوق. كله انتباه. انتصب النائمون على صوت هذا الزلزال الصـــباحي، الـــذي هز أركان القبو، وقفوا، على طرف بطاطينهم المفروشـــة على البلاط، في صف على شكل مربع ناقص ضلعا. ولجـــت القـــبو أجساد ضخمة.. صاح واحد منهم: كل واحد يقول أسمه ثلاثي، والمحافظة اللي هو جاي منها.

بدأ المساجين في ذكر أسمائهم وبلداتهم. تداخلت حروف (س ل م) فـــي آذان الضخام، الذين يطوفون بينهم ممسكين بالمطارق. قهقهـــوا: كله سالم.. سليم.. سلمان وحين انتهى المساجين، صرخ

أكــبرهم رتــبة: كلكــوا من هناك.. كلكوا من سينا.. الله أكبر.. عظــيمة يــا مصــر ياللي ما بتنسيش حقك أبداً.. دول اللي خدوا السـلاح منــنا فــي سبعة وستين وباعوه لليهود.. ودلوقت اليهود بيحاربونا بيه.

III

لســان توماس، مثل الجرس على مؤخرة البغلة، لا يكف عن الحــركة. وبالــرغم من كلامه الذي لا يتوقف، وهذه صفة من لا يكــتمون سرا، فقد كنت أحس أن ثمة سرًا لفه توماس بعناية، قبل أن يدســه في رأسه. يخرج أحيانا، يغيب أياما قبل أن يعود، ماذا يفعــل حين يغيب.. وأين يغيب..؟ لا شك أنه يخبر عساف، ولكن بمــاذا يخــبره؟ ثــم ما موقع توماس من رفاقه، الذين لا يتركون فرصـــة إلا ويرسمون النجمة الخماسية، على حجر أو في مصب وادي.

ولكـــي أعــرف، ماذا يفعل توماس ورفاقه، استخدمت تكتيكا مصــريا، عرفــته حيــن قــرأت، واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبــنودي، التي وجدتها في جريدة مطبقه، وملقاة في غرفتي في المدينة الجامعية:

...
قعدت معاه
وشربت معاه الشاي
قول اديته سجارة
وجرجرته في القول
....
هيرد يقول ايه

ما انا بديلوه القول مقفول..

...

فشـــل هـــذا التكتيك، رغم أنني نفذت، خطوة خطوة، ما كتب الأبـــنودي، فاضطررت لاستخدام تكتيك آخر. كان توماس واقفا، يطـــبخ العـــدس ويوزع النكات، بينما عودة يُقطع العجين، لعساف الجالس جوار الصاج يخبز، وقفت جواره، وقلت إني أعرف خبر لـــو ســـاعدتني فـــي تســـويقه، لكسبنا الآف الدولارات. نظر إليّ توماس، سأل: وما هو الخبر؟

قلـــت: لقـــد كان جدي، هو دليل د. فاوست، وأخذ مبلغا من المـــال، كـــان هائلا بمقاييس تلك الأيام، نظير أن يكون دليله في العـــام الـــذي يلـــيه. ولأن فاوست لم يأت، وجدي، كما لابد أنك تعـــرف، نبيل من نبلاء الصحراء، فقد أورث أبي، الموضوع في صـــورة، وصية، مما جعل أبي يوصيني قبل أن يموت: خذنا مال من رجل اسمه التكتور فاوست، والمال (أمانة) يا وليدي يا ربيع، كلـــناه فـــي بطونا، قبل ما نشتغل الشغل اللي خذنا المال قباله، إن جـــاك اللـــي يســـعلك ويـــن دق الرجل الثابوت، أثراه مدقوق ف المطـــرح الفلانـــي.. إلـــى هنا ورأيت العصافير تتقافز من عيني تومـــاس، وهـــو يسأل: هل تعرف المكان بالضبط.؟ أي اعرفنه. رديت.

تومـــاس ورفاقـــه يقولـــون، أن لقـــاء د. فاوست الأول مع الشـــيطان، تم في مكان ما من سيناء عام **1927**. اتفق د. فاوست مـــع الشـــيطان، أن يلتقيا في العام التالي، إلا أن فاوست مات قبل

الميعاد بأيام. ولكنه، وقبل أن يموت، لم ينس أن يوصي رفاقه، أن يذهبوا ليقابلوا الشيطان، في نفس المكان.

لــم يقــدر رفاقــه، على تحديد مكان اللقاء بالضبط، فتبرع تومــاس بالبحــث عنه. لذا وما أن وصلنا المكان، الذي اخترته، حتى شرع توماس، في رسم النجمة الخماسية، ثم قاس **216** مترا مــن الجــبل، وأجرى بعض العمليات الحسابية، ليتأكد أن الشمس تــتقاطع عمودية على النجمة، ثم دهن ستة أوتاد باللون الأصفر. زرع واحــدا مــنها فــي قلــب النجمة، والخمس المتبقيات، على رووس أضلاعها، ثم عدنا إلى الكامب.

غبــنا أسبوعا كاملا، كان توماس أثناءه يجلس ع الماسينجر بالســاعات، قــبل أن نعود، توماس ورفاقه وأنا دليلهم، إلى مكان الأوتــاد. صــعدت أراقبهم من فوق الجبل بالمنظار الليلي، وهو الوحيد من عدتي الذي ينتمي لعدة الصحراء. لم استطع أن أركب مارادونــا، ولــم أهــتم بأن يكون عندي كلاشينكوف. فقد عرفت وظائفي التي لن أقدر على أداء غيرها: دليل سياح أو بائع متجول أو مدرس للتاريخ الذي تعده الحكومة ليدرسه الأولاد.

بــدأوا صلاتهم، بإيقاد النيران في منتصف النجمة، ثم أشعل توماس عددا هائلا من الشموع، في اللحظة التي بدأ الكل في نزع مــا يلبسه فوق السرة. أخذ توماس في ترتيل تمائم يستحضر بها الشــيطان، بينما دخان الطرينة يصّاعد، حان ميعاد الرقص. كانت الطريــنة قد لعبت بالرووس، فشبك الرفاق أيديهم، وصاروا يلفون

حول النجمة الخماسية، وهم يرقصون، إلى أن تمكن الإعياء منهم؛ فتساقطوا واحدا وراء الآخر.

ألحت عليّ صورة أبي كما لم تلح من قبل، كانت لحيته ترتجف، والعروق الزرقاء نافرة في يديه وهو يشوح: ما بتعرف رب ولا لك دين ولا ملة، ربك هن الدراهم ما غيرهن.. ما تغير لا على عرض ولا على أرض.. ثم يوجه الكلام لأمي التي انقضت تدافع عني: أثراه وده يسوي الغنايم.. كود منشانه لقى ع الجامعة، لا وحياة هاللحية.. غير المصرية اللي وده يجيني كتفها ع كتفه .. ولا شي.. هم هم هم هم .. يا ريتني بولته ف شجرة.

وبدلا من أن أعود كتفي ع كتف مصرية، وفق تعبير أبي، عدت بإجازة في التاريخ.. ظل أبي يسأل: ليش ما تشغلك الحكومة، يا ولد يا ربيع، والا ورقتك اللي جيت بهي نصابة؟.. ما هي نصابة، بس ما فيه وظايف ف مصر. مصر بطولها وعرظها ما فيها وظيفة لك. قال ساخرا ثم طبق شهادتي ووضعها في جيبه. يوم السوق كان واقفا أمام كشك، الرجل الذي يكتب العرائض، قدام قسم الشرطة، دلى يده بها من شباك الكشك: انت يا استاذ اقرا لي بالله هالورقة. نظر فيها كاتب العرائض وقال: هذي شهادة من جامعة القاهرة. واش بتقول هالشهادة؟. حاملها حاصل ع الليسانس في التاريخ. يعني الحكومة تشغل اللي هي معه والا ما تشغله؟. تشغله. سعيدا عاد أبي، ولكن ظل السؤال يقرع رأسه: ليش ما تشغله الحكومة؟.

شـــهور قضيتها ف النوم للضحى العالي، مما جعل أبي يبدو مثل جمل هائج، مفزوعا أصحو وهو يرفع اللحاف عني، ثم يدلق أبـــريق المـــاء على رأسي: لا تنام بعد طلعة الشمس أبد. في هذه الشهور صرت أمارس العادة السرية مرتين، وربما أكثر في اليوم الواحد، وصارت أمي متألمة جدا لبطالتي، وصراعي المتوالي مع أبـــي. قال خالي: لا تتعشمي في وظيفة. الحكومة بطلت توظف. وأيش يسوي ربيع يعني، يرعى البل؟ سألت ساخرة. بيعي غنمكي والذهـــب اللـــي ع برقعكـــي واشتري لولدكي سيارة. نفذت أمي نصـــيحة خالـــي؛ فاشـــترينا ســـيارة نصـــف نقـــل، من طراز تويوتـــا(حدثتك عنها)، صرتُ أملأ صندوقها بضاعة، وأذهب إلى حيـــث الـــناس الذيـــن اختاروا سفوح الوديان مسكنا. كان صباحا صيفيا ذلك الذي وصلت فيه وادي غرندل، بدأت الشمس تصّاعد؛ فاشـــتدت حرارة الضحى، أوقفت سيارتي عند جذع سدرة قديمة، بظهر يدي مسحتُ العرق الناز على جبهتي، ثم جلست على حافة صندوقها انتظر مشتريا.

حيـــن جـــاءت تخبىء وجهها خلف لثامها، اعتقدتها في البدء آتـــية لتستظل بالسدرة، فكرت: وجودي سيضايقها، ظنا منها أنني فـــلاح، وبذا لابد تنوي طردي، ابتسمت في سري. ولكني سرعان ما تراجعت. فانزاحت الابتسامة عن شفتيَ اليابستين. لحست شفتيَ بلســـاني. فكـــرتُ: لـــو ظنـــت بأني فلاح لما دست وجهها خلف لثامها.. فهي حتما لابد مشترية. على الاستعداد إذاً..

اقتربتْ البنت من السيارة، التي كنتُ قد غطيت كبوتها بقطعة مـــن خيمة مهترئة، كي أقي مقدمتها حرارة الشمس، التي عجزت أغصـــان السدرة عن صدها. اتجهتْ نحو الصندوق، الذي لا زلت جالســا علـــى حافـــته، أرقبها بطرف عيني ..ألقتْ عليّ السلام.. فرددته وأنا أرحب بها مثل أي بائع لعين، وذي نوايا .....

قلبـــتْ البضـــاعة، بينما كنتُ أرقبها في محاولات حثيثة كي استشـــف مـــبغاها مـــن بضـــاعتي، توقفتْ طويلا عند المناديل، وصارتْ تقلبها وهي تسألني عن سعر كل واحد، ثم أمسكتْ بواحد منها تقلبه، بعدها رفعتْ ذراعها به وهي تقول: وهذا بكم..؟

مـــا أن أخـــبرتها بثمنه حتى انقلبتْ، إلى حيث هبطت وهى تقـــول: فـــي المـــرة الجاية ودي أشتريه منك.. أدركتُ أنها تريد المـــنديل ولكنها لا تملك ثمنه.. كدتُ أنادي عليها لتأخذه ولتأتيني بثمنه في المرة القادمة.. ولكني خفتُ أن يساء مقصدي..

بعدهـــا غبـــتُ طويـــلا، عن ذلك الوادي، حتى نسيتُ تماما المـــنديل، ونسيتُ التي سألتني عنه. وحينما فكرتُ في العودة إليه، لـــم يكن قد جال في ذاكرتي، موضوع البنت ولا موضوع المنديل بعـــد. ولم أتذكره إلا حين رأيتها هابطة من نفس المنحدر ملفوفة في سوادها.

حـــدث ذلـــك بعـــد أكثر من عام، حين عدتُ بالصدفة لنفس الـــوادي. ومـــا أن لمحـــتها حتى لمع المنديل في ذاكرتي. أعدتُ بســـرعة ترتيب ما معي من مناديل، وأنا أبحثُ عن ذلك المنديل، الـــذي وضـــعتْ يدها عليه في السنة الفائتة، وحين وجدته نحيته

جانـــبا، ومـــا أن وصلتني، وقبل أن أشير لها على المنديل، حتى فاجأتنـــي قائلـــة: عرفـــتُ انـــك ودك تجي اليوم.. قلت لها: أيش عرفكـــي؟.. قالت: أنت ما تدري أن أم غرير مابتجي تتناقز غير وراها ضيف

* * *

كنـــتُ جالســـا حذاء الشاطىء، حين جاءني عودة هابطا من أعلى الجبل. ماذا تفعل؟.. أعد موجات البحر.. قلت، وانطلقت في جـــردة حســـاب، فأحسست باليتم، غاليت فلتت مني، وارتمت في حضـــن عودة، نصبتي على توماس، خرجت منها بعلبة سكاير لا غير، لم أنجح في العمل كبائع متجول، وساعي البريد لا يريد أن يأتي بجواب التعيين، حتى مسلم الهيب لم ينج من حماقاتي.. ولهذا قصة:

خالـــي الـــذي له وجه ذئب، حين تنظر إليه من ظهره، وهو ماش، تحس بأنه يضع قدمه ع الارض مثل غزال. لما بنى اليهود مســـتوطنة (ســـادوت)، في أرضنا التي رحلونا منها، كان عمره ثلاثة عشر عاما. عمل عند واحد من المستوطنين، كان المستوطن يهوديا عراقيا.

تـــرقى خالـــي في عمله. وحين صار كابلان (رئيس عمال) أعطـــاه مســـتخدمه العراقـــي التراكتور، يأتي صباحا بالعمال من المخيم، على مقطورته، ويردهم لبيوتهم في المساء؛ فاشترى خالي قطيعا من الغنم. وسار يأخذ أمه كل صباح. وحين يصل المَشغل، يـــتجه العمال إلى عملهم وهو يقف وراءهم، بينما تذهب أمه إلى

الأشجار تحش ما تحتها. وحين تأتي الساعة الثالثة عصرا، تكون قد ملأت خمسة أكياس من العشب.

يُحمل أكياس العشب على المقطورة، ويُجلس أمه وباقي العمال فوقها. ثم يعبر الخلاء المحيط بالمستوطنة، متجها إلى بوابة الأسلاك الشائكة التي تطوقه. وعند البوابة ينزل العمال، ويواصل هو طريقة بأمه وأكياس الحشيش، إلى المخيم (كانت بيوت المخيم كلها أكشاك من الزينكو) يكون المساء قد حل. يضع العشب أمام الغنم، وتقوم أمه بعمل العشاء، أما هو فيكون قد (نمّر)، على مزرعة واحد من جيران مستخدمه، عمالها قطفوا البندورة ورصوها في كراتين، انتظارا لأخذها للسوق في صباح اليوم التالي.

يسطو عليها ويحملها ع التراكتور، تكون (فايقة) في انتظاره، ينزل الحمولة أمام دكانها، ويضع ثمنها في جيبه ويعود، يأكل اللقمة التي أعدتها أمه، ويعد فراشه وينام.

في هذه الأثناء، كان يتقدم لاختبار السواقة (كان يسوق التراكتور بدون رخصة)، دخل سبعة اختبارات ونجح في الدست الثامن (كان خالي والبدو كلهم يسمون الامتحان دست، والممتحِن دستر)، حين تجاوز الدستر عن (دست الكبريتة). يعطي الدستَر مقود سيارة النقل، المحملة بالحجارة، للمتقدم. وحين يكون في مطلع الطريق، يطلب منه التوقف، ثم يضع علبة الثقاب خلف أحدى عجلات السيارة الورانية، ويأمر الممتحِن بالمُضي. وفي

السبع دستات، التي دخلها خالي، كان يُحول علبة الثقاب إلى قطعة من الإسفلت.

ولمـــا حصـــل علـــى الرخصـــة، باع الغنم واشترى سيارة تـــندر (بـــيك اب) مـــن طراز بيجو. في الرابعة صباحا يكون في العريش، يملأ صندوقها بنات ويذهب بهن إلى المستوطنة، ينزلهن ثـــلاث أو أربـــع، وأحـــيانا خمس، عند كل مزرعة، ويبقي على واحـــدة، يأخذهـــا إلى أطلال دار شيخ القبيلة، في الخلاء المحيط بالمستوطنة(شيخ القبيلة كانت داره هي الوحيدة من الأسمنت بينما كـــل بيوتنا من الخيام). يقضي وإياها اليوم، وحين تشارف الساعة على الثالثة، يذهب للمستوطنة، يلم البنات ويعيدهن إلى بيوتهن.

ورغم أن خالي ترك العمل كابلانا واكتفى بالبنات، إلا انه لم يـــترك عادته في السطو على بندورة اليهود، فقط بدلا من تحميلها ع التراكتور صار يحملها في صندوق سيارته.

حيـــن رحـــل اليهود من سيناء، جاء الحزب الوطني، فالتحق خالـــي على الفور به، وارتقى حتى صار أمينه في واحد من أهم مراكـــز ســـيناء (شمال سيناء، إذ قُسمت سيناء إلى أربعة أقسام، ألحقـــت ثلاثـــة مـــنها بـــثلاث محافظـــات، بينما قُسم الرابع إلى محافظتيـــن). وحيـــن انفرجت العلاقة بين الرئيس والعقيد، تبادل الحـــزب الوطني الزيارات مع اللجان الثورية، وكان خالي عضوا في أحد الوفود التي ذهبت هناك.

لمـــا عاد خالي طلبني: اقرأ يا ولد يا ربيع.. وناولني أجندة، كان بها مئات من الكروت لشخصيات بارزة في اللجان الثورية..

سرقت منها ثلاث خمنت أنها أهم كروت في الأجندة. وحين أخبرني عساف، بأن مسلم الهيب، وجد القصيدة، التي يبحث عنها، وقام بتلحينها، وسيذهب لليبيا قريبا ليغنيها للعقيد القذافي، ورغم أنني كنت متأكدا من عدم جدوى الكروت التي بحوزتي، إلا أنني أعطيت مسلم كارتا منها.

***

استيقظ توماس، جال المكان بعينيه، تناول كيس البلاستيك، وجد الطرينة أوشكت على النفاد. قال عساف: دخنها، سآتي بغيرها.. خذني معك. قال توماس وانتفض واقفا تاركا الكيس. مشيا حذاء الشاطيء، تناولت غاليت الكيس. حطت الطرينة على ورقة وأخذت تنقيها من البذرات العالقة بها.. لفيه في ورقة أوتومان.. قال عودة.. اخلطي الطرينة مع السيكارة.. أردف وهو يلقي إليها بعلبة السكاير.

كانت غاليت تجلس شبه عارية. النصف الفوقاني، من جسدها، تغطيه بقميص، يتدلى إلى ما تحت سليبها. وتشده على كتفيها بحبلين صغيرين. تناولت دفتر الأوتومان وسلتت ورقة. سحبت سيكارة من العلبة، ومسحتها بلسانها ثم قدتها بظفرها. أمسكت ورقة الأوتومان بين أصابعها، وبعثرت الطرينة. قالت: تكفي للف سيكارة وتزيد. رد عودة: قد يتأخرا (توماس وعساف) فاقسمي الطرينة على سيكارتين.

سحبت التبغ من السيكارة، وخلطته على الطرينة، وفرجت ساقيها وشرعت تلف، مستعينة بحجرها في التقاط الفتافيت،

أحكمت لف ورقة الأوتومان المحشوة، لحست طرفها ولصقتها ثم دلـــتها في فمها. لملمت الفتافيت من حجرها وأعادتها للكيس، فقام عـــودة وأشعل لها. تمددت على ظهرها وهي تنفث الدخان، خرج الدخان من فمها غزيرا.

أريد أن أتعرى. قالت. تعري. رد مظهرا عدم الاهتمام. كان مســـتعدا أن يقـــدم أي شـــيء يقدر عليه مقابل أن يراها عارية. انتصـــبت واقفـــة، ســـلتت سليبها وألقته عند رجليها، ثم وبهدوء وضعت يديها تحت قميصها، أمسكته من أسفل ورفعته. كان عودة يراقـــبها. تحسســـت نهديهـــا تحت القميص، سلتت الكتافتين من ذراعيها، فسقط القميص فوق السليب. وقفت عارية، مسدت بطنها وظهرها ومؤخرتها وفخذيها، تناولت السليب والقميص ووضعتهما علـــى المخـــدة. كان عودة ينظر إليها وهي مستلقية على ظهرها، واضعة ساقا على ساق تنفث الدخان.

* * *

حيـــن تقربت منه زُهرة (كان ذلك في الفترة القصيرة قبل أن يقرر ترك الجامعة نهائيا) تسمر لسانه، ورغم المجهود الذي بذله، لـــم يســـتطع مداراة الرجفة التي ألمت به. ظن أنها العلاقة الأكثر قربا له مع امرأة.

كـــان أقصـــى ما رآه من امرأة، حتى إن كانت أمه أو واحدة مـــن أخواته، وجهها لا أكثر، أما الأخريات، فلن يرى منهن سوى عـــيون، ولـــن ينظر فيها طويلا، وسيبدأ الكلام بعد أن يشيح كل منهما بوجهه.

في ذلك اليوم ترك زُهرة وعاد إلى حجرته، تمدد على ظهره في السرير، يشحذ نفسه، ويستجلب عبارات عساف المشجعة (ذلك حيـنما أخـذ نصـيبه من ثمن الصقر وذهبا إلى المدينة واشتريا اللباس الجديد....

***

مـن فضـلك لا تستعجل.. سأعود سريعا للقوس الذي تركته مفـتوحا، ولكـن بعد أن أحكي قليلا عن عساف: بعد **40** يوما، وحين شُفيت البنت المجنونة، خيرها الفقير أن تبقى معه أو تذهب لأهلهـا. اختارت البقاء عنده، لكنها اشترطت أن يكون وجودها ذا صفة..

- خلكي.. إن كان هواك أختيه..
- إن قلت أختك.. ما آني أختك ..
- خلكي إن كان هواك بنتيه ..
- إن قلت بنتك.. ما آني بنتك ..
- خلكي.. إن كان هواك أميه ..
- إن قلت أمك.. ما آني أمك ..
- خلكي.. إن كان هواك مرتيه ..

تـزوجها.. وفي سنة المَحلَة، تلك سنة لم ترشق السماء فيها قطـرة مطر واحدة فوق الأرض، ولدتْ عساف. وبحسبة سريعة أسـتطيع أن أخمن أنها سنة**61**. لكن أبوه المثقل بالأولاد والنساء، أعطـى أمه غنما وسرحها. في يونيو **1967** احتل اليهود سيناء. وطالبوا الناس بأن يسجلوا أنفسهم وأبناءهم، حتى يعطوهم تموينا.

فذهبت أمه لشيخ القبيلة وسجلت نفسها. بعد أيام ناولها الشيخ هوية وثـــلاث شهادات ميلاد، الشهادة الأولى لعساف والأخريين بأسميَ بنتين وهميتين. حتى تاخذي تومين كثير. قال وهو ينوي الاستيلاء علــى أكثر من نصف التموين.. ولكي يضبط الحسبة بين عساف والبنتين اعتبره مولودا في سنة **62** بينما البنتين في **64** و**66**.

كـــان عســـاف على الجمل مصدرًا من البئر، رأى الطلاب يلعــبون الكـــرة قُــدام المدرسة (في تلك السنين لم تكن المدارس تُطــوّق بالحيشـــان) لف الرسن على رقبة الجمل وتركه يعود إلى البيـــت. انحـــدر لـــلأولاد يلعب معهم، ولأن أول الرقص حنجلة، ســـرعان مـــا سنجده جالسا في الفصل يتلقى العلم، ونظرا لعامل الســـن وعوامل أخرى، تَفوق عساف على زملائه، في الرياضات البدنـــية وفي التحصيل. ترك المدرسة، وعمل في مزرعة لإنتاج البـــيض، غادرهـــا ســـريعا، واشـــتغل في كافتيريا، قدام معسكر للمدرعـــات. تركها، رغم أنه لا يزال، حتى هذه اللحظة، يعتبرها مـــن أجمـــل أيام حياته، وعمل في غسيل الأطباق، في واحد من أوتـــيلات بيـــتاح تـــيكفا. كـــل هذا وسنة **82** تزحف مقبلة (اتفق الإســـرائيليون مع المصريين على نيسان **82** موعدا لرحيلهم عن ســـيناء) والكـــل يواصـــل الليل بالنهار، لكي يوفر أكبر مبلغ من المال، يستقبل ما ستأتي به. كان مستخدمه في ذلك الأوتيل يقول: مصر ما فيها شغل، خليك هون. سنعود إلى أرضنا، التي رحلتونا عـــنها. يرد عساف، الذي يرى في الرجل كهينا، يبغي دق إسفينا بيـــنه وبيـــن وطـــنه. عاد عساف، إلى الأرض التي رحله عنها

الـــيهود، وصـــار يشعل النار أمام خيمته، التي نصبها وسطها، لا ليســتقبل الضــيوف، كما كان جده يفعل، وإنما ليفكر في شيئين: الرشــوة التـــي ســيدفعها للصــول المكلف بحراسة معبد ياميت والطريقة التي سيسطو بها على مواسير المعبد وبلاطه.

وقـــبل أن يأتـــي عساف، تماما، على المعبد، جاء مصلح من إســرائيل يــريد الصيد. لمّا اصطادوا الصقر تقاسموا ثمنه. عودة ذهب إلى الجامعة، ومصلح عاد إلى إسرائيل، أما عساف فأشترى خــزانا ســعة **8** م مكعــب، وضعه على مكان عالي، ثم مد منه خــرطوما **2** أنش طوله **3** كم، وفي آخره زرع زرعته. دونمين فججهمــا وكأنه يزرع بندورة، وضع في الأفجاج زبل الدجاج، ثم غطــاه بطبقة رفيعة من التراب، مد فوقها شبكة خراطيم التنقيط، وتحــت الخراطيم وضع بذور الطرينة. اتفق مع سائق سيارة نقل، مــزودة بفــنطاس مياه، أن يملأ الخزان كل يومين، والحساب في آخـــر الموســم. بعــد شـــهر صار طولها حوالي **30** سم. مرت الطائـــرة، التقطــت صورة للمزرعة وأرسلتها إلى مكتب مكافحة المخــدرات بالسويس. جاءوا. دلقوا فوقها البنزين ثم أشعلوا فيها الــنار. أمـــا عساف، الذي صار مفلسا تماما، فقد فلت بأعجوبة. ذهـــب إلـــى نويـــبع، عمل طاهيا لفترة، قبل أن يُقيم الكامب على شـــاطيء رأس الشـــيطان، ولكنه أبدًا لن يكف عن الدوران حول الطرينة.

* * *

الآن سأعود للقوس الذي تركته مفتوحا.. ذهب عودة للجامعة، كان عساف يردد عند أذنه: لزوم البنات، وحين لبس اللباس الجديد، تقافز عساف بجواره فرحا مثل ظبي، وهو يردد: أنت شيك، زي ممثل هندي.)

في البدء رآها، كانت زُهرة تشارك في مظاهرات الجامعة، تعلق الصور التي تساند موقف المظاهرة، وكان سئما، يتجول وحيدا، يحاول التعرف على أجواء الجامعة، أعجبته فكرة المظاهرات، وأعجبته هذه البنت التي لا تعتني بماكياجها، ذكرته بمائلات العصائب، اللواتي تذكرهن أمه دوما عند رؤوس أخواته البنات حين يقمن بفعل لا يعجبها. فتنادي: لا تظحكن علينا مايلات العصايب.

يتخيل مائلات العصائب نساء جادات لا يعجبهن الحال المايل، سمع أحدى الإذاعات الفلسطينية، التي تبث من دمشق، تنادي مايلات العصايب بإكبار، وزُهرة رآها تعلق الصور التي تعضد معارضتها للذي تراه حالا مائلا، ولكن السؤال، الذي بدأ يقرع رأسه، ما الذي دفع زُهرة لتقترب منه؟

هل كانت فقط مجرد داعية لأفكارها..؟ شك في ذلك فرغم أنها ناولته الصور نفسها المعلقة على الحبل، الذي يطوق الأولاد والبنات الهاتفين، ولكن نظرتها إليه وهي تناوله المنشور، تقول لم يكن إعطاؤه المنشور هدفها الوحيد. انسل من السرير وذهب إلى الحمام، وضع رأسه تحت الحنفية، وفرق شعره من مؤخرة رأسه،

ومســحه بــيديه فغطــى وجهــه بأكمله، نفضه وانسحب يجوب الشوارع.

***

بــدأ جرحـــي يندمل ببطء، بعد أن ظللت لأيام أُكثر من إلقاء نفسي في الماء، لأداوي حالة السَعَر التي أصابتني بسبب فقدي لــ غاليت. لمعت صورة أبي في رأسي مثل غماز سيارة، كان جدي يضــحك حــتى يرتمــي علــى ظهــره، حين يقول الطفل: قايد الجــريش.. وش ودك تســير لمــا تكبر يا سليمان؟ قايد أيش يا سليمان؟.. الجريش. الجريش.. ولكن أي جيش هذا الذي تريد أن تكــون قــائده يا أبي. يشتري لك جدي متر العبك من بئر السبع، فتخــيطه لــك جدتي ثوبا، تلبسه حتى يأتي العام الذي يليه. وكيف بتغســله؟. بتجرد ع البير واغسله والبسه ع طول. قبل ما ينشف؟ بينشف وانا لابسه.

ولمّا بتتبرد؟. باتبرد والثوب علي. وأيش بتلبس تحته يا يباه؟ ولا شــي الحمــيد المجــيد. وف رجلاك؟ حافي. وعلى رأسك؟ عقدتــي. ولــيش مــا ظل جدي ف بير السبع لما خذوها اليهود؟ وعماتك، يومن نبعد عن ربعنا، عليمن نجوزهن ينتشوهن من بين ايدانا الهبوش، يا وليدي الرجل ما له غير ربعه.

ربمــا كان عمره ست سنوات، حين استيقظ من النوم ليخبر أبــاه: يــا يــباه حلمــت لو أن غنمنا كلهن ميتات. وش بتقول يا ســليمان؟. يومها دفن جدي الشعير، بعد أن فصله عن تبنه، وهبط

هــو وجدتـــي وعماتي من بئر السبع إلى أسدود، يعيشوا وغنمهم فصل الصيف. وفي الطريق عرفوا أن اليهود استولوا عليها.

ارتـــدوا عائدين، وحين وصلوا، وجدوا اليهود على مشارف بـــئر السبع. كان جزء كبير من الغنم قد هلك، والتبن وبيت الشعَر محترقيـــن، أمـــا الشعير فقد سُطي عليه. قاد جدي باقي الغنم إلى ســـوق بـــئر الســـبع، وضع ثمنها في جيبه. في الطريق قابله من قابله، وفعل معه ما فعل (فقد مات جدي وسره مدفون في صدره) ثم استولى على ما معه من مال.

وضـــع أولاده فوق الناقة، وجرجر امرأته هابطا إلى ربعه، هـــناك فـــي سيناء له قطعة أرض، يرتهنها واحد من أقربائه. قال أخـــوه (جـــدي بـــركات): بع الناقة يا حسن يا خوي.. وفك رهن بـــلادك.. وعلى أيش أورد؟ خذ حمارتي أنت أورد يوم وأنا يوم. كـــان العـــرض مغريا، لكنه رفض أن يراه الناس يرد البئر على حمارة.

أخـــذ أبـــي وعمي، في الطريق، جرى أبي حافيا ع الحمادة يلاعب الحصى، ابتسم جدي: لا ما أنت تلفان يا وليدي يا سليمان. وحين وصلا، بعد أن مشيا أكثر من ميتين كم، مضارب ثري من أثرياء الصحراء، سأله أن يشغلهما عنده.

صـــار عمي يرعى غنم الرجل، بينما يقوم أبي بجلب الماء. ولأن الكـــبار لا ينادونه بغير الراعي انحاز للأطفال لأنهم ينادونه ســـليمان. أما معارك نساء الشيخ فقد حيد نفسه منها. حين يصير علـــى مشارف المضارب، مُصدَرًا من البئر، يترجل ثم يلف رسن

الجمـل علـى رقبـته، ويئزه ليواصل دربه. ويظل يتلكأ، مدعيا ملاعـبة الحصى، إلى أن يصل الجمل، وتنفض معركة المرأتين على الجرار.

أما جدي بركات فقد ظل يقلّب الأرض بين المرتهنين. كيف؟ الرهـن فـي هـذه الحالة هو تسليف أحدهم مبلغا من المال لمدة معيـنة، وأخـذ أرضـه رهنا. وحين تنتهي المدة، دون أن يسدد المديـون مـا عليه، يأخذ الدائن الأرض.. كان جدي بركات كلما اقتربت المدة، وأوشك الدائن على لطش الأرض، يبحث عن دائن جديـد، يـأخذ مـنه مالاً يسدد به الأول، يسترد الأرض ويسلمها للجديـد... وهكذا في عملية لا تنتهي حتى تبدأ.. ولكن على ماذا يراهـن؟.. علـى الوقت.. هو هنا رمى طوبة أخيه، جدي حسن، وراهن على الطفلين(أبي وعمي).. (حتى يلقى اولاد أخوي مسكن لمّا يكبروا) كان يردد.

الآن وبعـد كـل هـذه السنين، أجد نفسي رائفا بحال جدي بركات، المسكين يبذل مجهودا خارقا وهو يراهن على المجهول، مـثلا: لـو لم يفتح الله باب تهريب الرواظي (جمع **radio**) من قطـاع غـزة إلى مصر في الستينيات، ولو لم يكن أبي واحد من أشطر المهربين في تلك الحقبة، لما قدر جدي بركات أبداً على فك بلاد أبنيّ أخيه.

أقـام أبـي خيمته فوق أرضه، وظل يضع أخوي ذياب فوق كتفـيه، وينظر من وراء الأسلاك الشائكة. ويهمس له، وهو يشير إلـى الجـنود الإسـرائيليين الواقفين وراء الأسلاك وهم يضعون

أيديهـــم حـــول خصورهم، هناك بعد عشرين كم أرضنا. فأنقضُ علـــيه، والغـــيرة تملأ قلبي من علاقته بذياب، أي أرض هذه التي تخـــبر ولـــدك بها، أهي أرضنا في بئر السبع، التي استولى عليها الـــيهود عام **48**، أم سابقتها، أرض القرارة في خان يونس، التي اســـتولت علـــيها قبيلة الترابين. وهلك نصف قبيلتنا في المعارك المتوالـــية التـــي خاضـــتها. ولـــم نستردها حتى يومك هذا، الذي (.....) فيه ولدك فوق كتفيك.

بعدهـــا بأكـــثر من عشر سنوات، حين عاد ذياب من جامعة القاهـــرة، وذقنه تصل إلى نصف صدره، كان أول شيء فعله أن حـــرم على أمه زيارة قبور أولياء الله الصالحين، وامتنع عن أكل ما يذبح الكافر أبي. اشترى أبي كيس دقيق وجاء به محمولا على مقطـــورة التراكـــتور، أنـــزل الكيس ونادى: ذياب يا وليدي هات الشبرية. وبكل طاعة الدنيا جاء ذياب والمدية تلمع في يده. تناولها أبـــي، وحز الحبل القابض على فوهة الكيس، وهو يردد: بسم الله .. الله اكبر. ثم أضاف: ذبحته لا تاكل منه يا ذياب.

***

كـــان عساف يعدو حافياً، فوق الإسفلت، نحو الماسورة التي تقـــل اللافتة. والضبع يلف حوله في دوائر ما تنفك تضيّق. وحين أوشـــك أن يتناوله كان عند الماسورة. حضن الماسورة بعضديه، وصـــار يزحف إلى أعلى، مستعينا بوركيه. والضبع يتراجع إلى الوراء. انطلق الضبع إلى الماسورة، رفع رجليه الأماميتين عليها؛ فكـــادت مخالـــبه أن تطال قدم عساف. وبينما عساف يشد رجليه

عالــيا ويــنظر مذعورا للضبع، استيقظت من نومي. قعدتُ وأنا أتحسس رقبتي. كان ريقي جافا. لامست التراب بيديّ، ثم رفعتهما إلــى أعلــى. وجدت السماء في مكانها. كنت ظننتها انطبقت على الأرض. ناديــت عســاف، فانتصــب واقفا في منامه. إذا أيقظت عســاف في النهار فأنه يفتح واحدة فقط من عينيه. أما أن أيقظته لــيلا؛ فقبل أن أنطق حرف الفاء، يكون عساف، ببطنه التي تكاد تلتصــق فــي ظهره، منتصبا مثل الرمح، وهو يسأل: وش فيه؟ اسقني. رديت.

جاء عساف بالإبريق. وحين جلس بجواري، أشعل سيكارتين ناولنــي واحدة، وهو يعب من الثانية. حكيت له الحلم الذي رأيته. وضع رأس سيكارته في التراب، ثم توسد ذراعه وتمدد في مكانه. رُحــت أتمشــى، بين منحنيات الجبل، حول الكامب. كان عساف يقــول: أكــثر من **30** سنة يا ربيع، ما شفت فيهن يوم واحد من غير إهانة. تقول إهانة. من الذي يهينك؟ سألت منزعجا. كل شيء حولــي مهينا. أجاب. مشكلتك بداخلك يا عساف. قلت وقد فهمت ماذا يعني. تخيل شخص، على المحطة، ينتظر القطار. قلت وبعد لحظة صمت أضفتُ: يلبس بنطلون وقميص ويذرع المحطة جيئة وذهابــا ويــداه في جيوبه، يصفر أحيانا، ليطفىء من القلق الذي يشــتعل بداخلــه. حين يأتي القطار، سيبحث الرجل عن مكان ع المواســير، التــي تربط بين أي عربتين، وحين يجده يتشعلق به. ســيظل الرجل في حالة صراع مع أجزاء جسده، حتى لا يقع بين القضــبان، فيسحقه القطار. لو كنت مكانه، سأفكر كيف أُغير من

طـــريقة سفري، لأحصل على موضع قدم في الدرجة الثالثة. أما أنت يا عساف، فإنك ستفكر كيف تغير من سفرك بالقطار لتركب طائـــرة! مشـــكلتك أنـــك تجرب بطريقة نظرية، ومع نفسك، مما يفضـــي بـــك لأن تلقى نفسك متحوصلا في النظري. وهكذا يظل تـــورم الـــنظري في اضطراد بينما العملي يتقلص. قُل كلمتك يا عســـاف، ففـــي كـــل مرة تقولها تعرضها للشمس؛ وفي كل مرةٍ ستضيف إليها وتحذف منها، وحين تنضج ستجدِ من يسمعها. كنتُ أتكلـــم بيـــنما عســـاف ينظر إليّ صامتا. قلتُ: إنني أشعر بنفس الإهانـــة التـــي تشعر بها. ثم أضفتُ: أُتريد أن تعرف كيف أداوي إحساســـي بالحقـــارة؟. بالغـــناء. أغني مع سعدون جابر: بوي يا محمد.. يا محمد ما ظل ضيم وما شفته.

***

في اليوم الثاني، كان عودة واقفا، يتفرج على الصور المعلقة علـــى الحـــبل، الـــذي يطوق الأولاد والبنات، كانت هي نفسها، الصـــور التـــي أعطته إياها زُهرة أمس، وضع واحد من الأولاد، المطوقيـــن بالحـــبل، الشريط في المسجل؛ فأنطلق الصوت عاليا: قلوبـــنا إليك ترحل كل يوم.. يا قدسُ.. في هذه اللحظة كان عودة عائمـــا فـــوق موج من الصور. الصور التي أمامه والصور التي تفـــور فـــي ذاكرته. صور.. صور.. صور.. صار العالم صور، مذابـــح صـــابرا وشاتيلا.. مدرسة بحر البقر.. صور لجمال عبد الناصـــر مـــرة لابســـا قميص وأخرى بذلة. مرة بنظارة شمسية وأخرى واضعا منظارا على عينيه.. جاءت زُهرة: صباح الخير.

صباح النور. رد. شُفت بيعملوا فينا إيه. قالت بطفولية. شفت. رد وغـاب فـي شـريط صـوره. كـان طفلا حين أمسكه الجندي الإسـرائيلي من كتفيه، وأنزله من فوق جناح التراكتور.. قبّلهُ في جبهـته وأعاده إلى مكانه. ظلت أمه تردد مفاخرة: حب وليدي.. اليهودي، والله العظيم، نزّل عودة من ع الترك وحبه.

طـوف لدقـائق، ثـم قال لزُهرة -كاذبا- بأنه ملزم بالذهاب للمـدرج لاسـتدراك المحاضـرة. اذهب وتعال بعد المحاضرة.. قالـت. ضـايقه قولها، فهذه المرأة لا تريد منه سوى التواجد في المعـرض، لإكـثار عدد المتظاهرين. عدد. فكرة العدد في ذهنه مرتـبطة بـالديوان، يذهب لشيخ القبيلة فيجلس مثل غيره (عدد) وكأنـه بكرج للقهوة أو فنجان لشربها أو صينية أو الكانون الذي تشعل فيه النار.

لم يكن ذاهبا للمحاضرة، فتواجده في المدرج يشعره بالغربة، ليس لأنه أجبر على دراسة الفلسفة، فهي واحدة من مقاديره، ولكن إحساسـه بأنـه فاشل ضايقه، وجعله يدور حول نفسه، كأنه ذبابة حشرت في كوباية، وأخيرا قرر الذهاب إلى المكتبة.

الوجوه التي رآها جعلته يتساءل أية صدفة دفعته بينها، تذكر تلـك المتوالـية من الصدف التي صنعت بطل رواية قرأها، وبدأ يصنع لنفسه متوالية صدف موازية: صدفة كانت أمه حاملا حينما مـات أبوه، وصدفة خرج ذكرا وراء ثلاث بنات أتين في أعقاب بعضـهن كأنهـن طلقـات كلاشينكوف، وصدفة دخل المدرسة، وصدفة أتمها دونا عن الكثير من أولاد البدو، وصدفة أتى مصلح

مـــن إسرائيل ليقترح عليهما (هو وعساف) أن يذهبوا لرحلة صيد صـــقرية، وصدفة أمسك عساف بالصقر ولم يكن- هو ومصلح- متواجديـــن معـــه فـــي تلـــك اللحظة، ثم باع الصقر وقبض ثمنه وأعطـــى كل واحد منهما نصيبه، ليتواجد الآن في جامعة القاهرة، ولكن أكثر الصدف غرابة هي صدفة دخوله قسم الفلسفة.

كان ينوي دراسة الأدب الإنكليزي، ولأنه وصل متأخرا عن بـــدء الدراســـة بشـــهر علـــى الأقل، وجد أوراقه، مثل كل أولئك المتأخريـــن، مدفوعا بها إلى قسم الفلسفة لعدم الإقبال عليه. تقبل الأمر رغم ضيقه، فقد كان يتمنى أن يختار تخصصه بنفسه، حتى وإن كان هذا التخصص الفلسفة.

بـــدأ يتخـــيل متوالية صدف أتت بهذه الوجوه، التي تمر أمام عينيه مسرعة، ثم بدأ يعقد مقارنة بين متوالية صدفه، وبين صدف هـــذه الوجـــوه التي تخيلها كالآتي: ذات ليلة اختلف زوج فيها مع زوجته فزعقت فيه، كان صباح هذه الليلة بالضبط سيكون صباح امـــتحان البنت/الولد في الثانوية العامة، انعكست هذه الربكة على نفســـية الولـــد/البنت فلم يستطع أن يحل جيدا في الامتحان، ليجد أوراقـــه تنزاح من كلية الطب/الهندسة إلى كلية الآداب.... قبل أن يكمل المتوالية ناولته موظفة المكتبة الكتاب الذي سألها عنه، أخذه وذهـــب إلـــى طاولـــة القراءة، أعجبه الكتاب لكنه قلّب نظره بين الأكتاف الشبه عارية للبنات اللواتي يحطن به، شعر بغربة، ضجر مـــن المكـــان وسكونه، طوى الكتاب، واتجه إلى موظفة المكتبة،

أخــرج كارنــيه الاستعارة، وضعه على الطاولة، سجلت الموظفة اسمه، وأعادت له الكارنيه والكتاب. تناولهما واندار خارجا.

حيــن أخذ قلبه ينبض، كان هابطا درج المكتبة، سمع صوتا يــنادي اسمه، التفت إلى الصوت، زُهرة قادمة معها حزمة ورق، قــال لنفســه: ستعطيني ورقا جديدا، علّ هذا النوع الجديد ينجح، فيما لم ينجح فيه ورق أمس.

ســلّم علــيها. سألت: لم تذهب للمحاضرة. رد: حين وصلتُ كــان المحاضــر قد دخل والمدرج مقفلا. ذهبتُ للمكتبة لاستعارة هــذا الكــتاب. لا يــزال قلبه يخفق سريعا، يحاول بكل جهده أن يسيطر على نبضه، جاء حميد، عرفه عليها وعرفها عليه(كان يثق فــي حمــيد ويحبه). وقع الأقدام على الدرج بدأ يضايقهم، اتجهت زُهــرة نحو الدرابزين الحجري واتكأت عليه.. مشيا وراءها، اتكأ عــودة علــى الدرابزين بينما ظل حميد واقفا. كان حميد يحدثها، صار عودة أقل قلقا.

قــال لها، حين تأكد أنها لا تريد أن تعطيه ورقا جديدا: بدل الوقــوف على هذا الدرابزين، اسمحوا لي أن أعزمكم على شاي. تمنعــت زُهــرة ووافــق حميد، فصارا اثنين، هو وحميد ضدها. فأردف ضاحكا: عربون صداقة. أحس بأن كلمة (عربون صداقة) أدهشــتها.. كثــيرا ما ينجح في بعض المواقف بكلمة واحدة، قد يكون سمعها أو قرأها، المهم تخلصه من غربته. افترق هو وحميد عن زُهرة، لم يذهب لسريره في المدينة الجامعية، عزمه حميد في

شـــقته.. لبى .. كان يحتاج لصديق، في المدينة الجامعية لم ينجح في خلقه.

وصـــلا الشـــقة.. وضع حميد أشياءه، كتب وشريط كاسيت، على طاولة خشبيّة تتوسط صالة ينفتح عليها باب الشقة الخارجي، فـــتح الـــثلاجة، ثـــم ذهب إلى المطبخ، غاب قليلا ليعود بأطباق، رصـــها علـــى الطاولة، بدءا يأكلان. رن جرس الشقة، فتح حميد الـــباب، دخلت امرأة. تكلما بصوت خافت، قامت المرأة وأمسكت التليفون.

أزاح حمـــيد الأطـــباق، وأعادها إلى المطبخ، جاء بكؤوس، فتحـــت المـــرأة الثلاجة، أخرجت زجاجة، صبت منها جرعات، ناولت كل واحد كأسا واحتفظت لنفسها بالثالث.

شـــعر عـــودة بالمـــرارة حين ارتشف الرشفة الأولى، هذا يا حميد..(قال عودة.. وخجل أن يكمل. نظر حميد نحوه ضاحكا ولم يجـــب، التفت ناحية المرأة ونظر في ساعته.. ثم قال: تأخر الناس يا عدلات.. وماذا أفعل يا حميد كلمتهم ع التليفون، قدامك، وقالوا أنهـــم جاييـــن.. ثم غمزت بعينها وهي تردف: وبعدين أنت مالك مستعجل كدا ليه..

نحى عودة الكأس جانبا .. لماذا لم تكمله..؟.. قال حميد.. لا أحـــتمل مرارته. رن جرس الباب. دخلت فتاتان. ارتمت أحداهما على الكرسي غانجة، توجهت الثانية نحو الكاسيت المفتوح، وعلت الموســـيقى، ثـــم انثنـــت نحو صاحبتها، وزغدتها وهي تقول: ما تقومي ترقصي ياماما..!!

ننـــتقل إلى الصالون. قال حميد. سحبت البنت فيشة الكاسيت وتبعـــتهم، جلســـوا. توجهت نحو صاحبتها، التي جلست غانجة، وقرصـــتها فـــي كتفها العاري: ما تقومي ترقصي. قالت عدلات للبنت التي لم تقم: ما تقومي ترقصي يابت.. ثم نظرت إلى الثانية وقالت: حزميها يابت.

قامـــت وهـــزت مؤخرتها، هزات خفيفة وبطيئة. ثم ضبطت المـــنديل، الملفـــوف حول مؤخرتها، وانطلقت في فاصل رقص، أنهته عدلات زاعقة بأن يدخلن الحمام ليغتسلن، وتختار لها واحد: تاخده وتخش في واحدة من الأوض.

خرجـــت الفـــتاتان من الحمام، اختار حميد الفتاة التي كانت تـــرقص، وأخـــذ عودة البنت الثانية. طلب منها أن تتعرى، كانت لديـــه رغبة عارمة، أن يرى جسدا أنثويا. تمدد على السرير، فك حـــزام بـــنطلونه وأنزل الجرار، يمسد عضوه تحت السليب، كان منتصبا، والبنت واقفة أمام المرآة، تخلع أرديتها قطعة قطعة، فكت أزرار القميص، ثم سحبته من ذراعيها، وعلقته فوق باب الخزانة المفـــتوح، وقفـــت بالجيـــب والســـونتيان، نظرت في المرآة على جســـدها، فكت السونتيان وخلعت الجيب، ووقفت تتحسس نهديها وترقبهما جيدا في المرآة.

انقلبـــت عارية، تمددت جواره: اقلع هدومك.. طلع عضوه، فارتمـــت فوقـــه.. خلع الفانلة وترك نصفه العلوي عاريا، مسدت بـــيدها علـــى الشعيرات النابتة في صدره، قلع البنطلون. أراد أن

يدخل عضوه بين فخذيها.. قالت اقلع السليب أو خليه في رجل واحدة.. قلع السليب واستلقى فوقها.. غطيني. قالت.

لم يكن مستمتعا بهذا اللقاء، ولكنه أراد التجربة، قام فورا، حدث ذلك في أقل من ثلاث دقائق. سحبت منديلا ومسحت عضوه.. عشان الملاية متتوسخش.. عاوز تاني.. كان ضجرا، لكنه لم يكن يصدق أن هذه التجربة العاتية في خياله، التي سيطرت عليه لسنين، ستنتهي بهذه السرعة، فأراد أن يبقيها.. نظر بين فخذيها، كان فرجها لزجا ومقززا.. قام وغسل عضوه. ارتدى ملابسه، وخرج إلى الصالون.

***

كانت غاليت أمام اللوحة المرفوعة، على عمودين من خشب النخيل، صنعهما عساف، تقعد عارية على ركبتيها، وقدماها منتصبتان على رءوس أصابعهن. بينما عودة متمدد على بطنه ينظر إليها، كان صدرها ناحية اللوحة وظهرها نحوه، يتفحصها من باطن قدميها، كعبيها، ساقيها فوركيها ومؤخرتها، ثم ظهرها، شعرها ولمعان السلسة الذهبية، المختبئة بين ثنيات عنقها، كلما حركت رأسها وهي تصفر.

نظر إلى مؤخرتها، رغب أن يمسد أصابعه عليها، كان لا يزال متمددا على بطنه، قام وتوجه نحوها، وقف جوارها، كان ساقه يكاد يلامس وركها، نظر للوحة التي ترشق عليها الألوان. بن سالمان. أبعد اللوحة. ثم انثنت على ظهرها: وين الطرينة. سألت. مكان ما خليتيها. رد. أعادت صدرها إلى الأمام، وجلست

علـــى ركبتـــيها، كانت مؤخرتها فوق كعبي قدميها. نظرت إليه، ودون أن تنـــبس ببنت شفة، توجهت نحو الفراش الموضوعة عليه الطرينة، أمسكت دفتر الأوتومان وسلت منه ورقة، وشرعت تلف.

عـــاد إلى مكانه، تمدد على الفراش المبسوط في قعر الخص، يـــنظر إلى جسدها العاري. كانت تنظر نحوه بطرف عينها، لفت السيكارة، ولعتها ثم تمددت على ظهرها، تنفث دخانها إلى أعلى. مدت يدها بالسيكارة إليه. أخذها، شهق منها نفسا فتصاعد الدخان دائريا..

انفـــخ الدخـــان فـــي فمي. قالت. شهق نفسا ثانيًا وأدخله إلى رئتـــيه، ثـــم وضـــع فمه على فمها، كحت كحات سريعة، خفيفة ومتوالية، مسحت بيدها قليل من اللعاب تطاير على شفتيها، مدّ يده جانـــبا دفـــن رأس الســـيكارة، المشتعل، في التراب، مسح شفتيها بأصـــابعه، ثـــم قرب وجهه من وجهها وبدأ يمسح وجهها بشعر ذقنه، أمسكت بشعره وجذبته فوقها.

***

ألقـــى عـــودة بجسده في البحر، أخرج رأسه من الماء، نظر حوالـــيه، رأى غاليت، ألقت بجسدها في الماء وراءه. طوق بيديه خصرها و حملها عاليا، فصرخت، ألقاها بشدة في الخليج، ورش جسدها بالماء المالح، كانت تغمض عينيها وتصرخ.

***

اســـتيقظ علـــى وقع أقدام، رفع رأسه، رأى توماس وعساف قادميـــن، كان عساف يحمل كيسا بلاستيكيا أسودا. عرف أن الذي

بالكـــيس طريـــنة، وأن عســـاف خبأ ما هو أكثر، من الكمية التي بالكيس مرات، في طرف الجبل.

كانـــت غاليـــت لا تزال نائمة، بعد حمام البحر، تلف جسدها العـــاري بغطـــاء، نظر توماس إليها، عرف أنهما تنايكا، فابتسم، وقـــبل أن يجلس، قال موجها كلامه إلى عودة: قم وأعدّ لنا شايا، وســـأحكي لك بعدها حكاية.. الشاي مقابل الحكاية، هذه مقايضة.. قال عودة، الذي خمن أن الحكاية مرتبطة به وغاليت. تستطيع أن تعتبرها كذلك. رد توماس.

أعـــد عودة الشاي وصبه في الفناجين، ثم جلس على ركبتيه، ينتظر حكاية توماس، الذي ظل صامتا، وحين طال صمته، طالبه عودة بالحكي، فتنحنح توماس على طريقة الرواة وقال: حين مات سالم احتاجت العرب لمن يصلي عليه، فأوفدوا حسان يأتي بشيخ. ركب حسان المارادونا وحين أطل على القرية، رأى حركة غريبة عـــند مدخلهـــا، قـــال في نفسه: قد تكون حكومة. أوقف السيارة يســـتطلع الأمـــر. ولأنه لم يستطع معرفة السبب ، أدار الأمر في رأســـه، ففضل العودة. وحين سأله العرب عن الشيخ.؟ أجابهم: لم أجد شيخا، ماذا تريدون من الشيخ؟.. قالوا: يصلي بنا على سالم، ثـــم ندفنه على سنة الله ورسوله. قال: أنا أستطيع أن أصلي عليه، علـــى ســـنة الله ورســـوله. تساءلوا: ولماذا لم تخبرنا أنك تعرف الصلاة؟. لم يسألني أحد. رد.

أسجى حسان الميت أمامه، ثم صفهم وراءه في صف طويل. قولـــوا مـــثلما أقول. طلب منهم، ثم رفع يديه قرب أذنيه وقال: يا

ســالم. فردد المصطفون وراءه بصوت واحد: ياااسالم. ود يجوك اثنيـن. إن سعلوك عن الدقيق، قل وجاد والحمد لله. فردد الصف وراءه: قـل وجـاد والحمد لله. وان سعلوك عن الزيت، قل وجاد والحمـد لله. وان ســعلوك عن السكر، قل وجاد والحمد لله. وان ســعلوك عن الشاي قل وجاد والحمد لله. ظل يدعو، وهم يرددون وراءه، حـتى أتـى على كل الأشياء التي يعرفها، والتي يحتاجها القـوم في يومهم. بعدها هدأ صوته، ولوح بإصبعه السبابة، للجسد الساكن أمامه، وهو يضغط ع الحروف، وان سعلوك عن الطرينة. دس واجحد لا تودي العرب في داهية.

***

رفعـت غاليـت الغطاء عن رأسها، أيقظتها، جلجلة ضحك عســاف، بعد أن أتم توماس حكايته، استفسرت عن سبب ضحكه، فحكـى لهـا الحكاية. كانت الدهشة قد عقدت لسان عودة، لم يكن مندهشا للحكاية، بقدر اندهاشه من كون توماس هو راويها، ففوق انزعاجه الشديد منها، ضايقه كون توماس تسلل تحت أرجل البدو، وتشـمم خصوصـياتهم إلى حد، صار معه يستطيع أن يحكي من طرائفهم وخصوصياتهم ما يدهش..كم عرف توماس عنهم؟

كان عودة قلقا من معرفة الغربيين بخصوصياته، منذ اللحظة التـي عـرف فـيها قصـة البدويين، (حمودي وداهوم) صديقيّ لورنس، الذين اصطحبهما في رحلة إلى لندن، وهناك صارا محل تـندر للإنكليز، الذين صاروا يلتقطون لهم الصور، مدهوشين من لباسهما العربي المزركش.

انـــزعاج عـــودة، لم يدفعه للتفكير في طريقة يتحاور بها مع توماس، ففـــوق أن هذه المنطقة بالذات، منطقة الطرينة، والكلام حولهـــا وفيها وعليها، سيكون غير مريح، ثمة مشهدان لا يزالان طازجين في رأسه:

المشـــهد الأول: ما أبدته مرة غاليت، من كونها مرعوبة من تحـــول المـــنظومة الاقتصادية للبدو، إلى منظومة تابعة لمنظومة الســـياحة. ثم أردفت: النفسية البدوية لا تسمح بولوج البدوي هذه المنظومة، إلا من مدخل واحد فقط: الطرينة.

دفنـــت سيكارتها في الرمل، بعد أن شهقت النفس الأخير، ثم أضـــافت: شيئان أساسيان تعتمد عليها السياحة في سيناء، رياضة الغطـــس وتعاطـــي الطرينة. وكل الوظائف التي توفرها مثل هذه الســـياحة، لا تســـتهوي الـــبدوي، قالـــت وهي تنظر نحو عساف مبتسمة، من الصعب عليه أن يعمل نادلا مثلا.

الطريـــنة، تضـــعك في حالتين، البدوي يحبهما، الأولى جو الخطـــر الذي يحيط بدورة الطرينة، والثاني، وهو تقريبا الأقرب إلـــيه، إنهـــا شـــكل مـــن أشـــكال الـــتجارة، التي هي من المهن الأرستقراطية في وعيه.

المشـــهد الثاني: كان جالسًا في مقعده، ليس متأكدا، لحظتها، هـــل كان غارقا في أفكاره، أم كان منصتا للأستاذ، مثل ذلك العدد القليل من الطلاب الذين ينصتون للأساتذة. كان الدرس واحدا من دروس الفلسفة العربية، التي يحرص على حضورها، وحينما سأل الأستاذ سؤالا يعرف إجابته، رفع يده، وبدأ يجيب متلجلجا.

لفتت لكنته نظر الأستاذ، فبادره مستفسرًا: أنت من فين؟. من سـيـنا. أجـاب، قبل أن يريعه تعليق الأستاذ: أخبار البانغو عندكو إيـه. وما أن بدأ يجيب حتى بادره: ما تاخدناش في دوكة، عشان أنا عارفكو كويس خالص يا بتوع سينا. أنا كنت في سبعة وستين، ضـابط احتـياط فـي صدر الحيطان. كنتو بتاخدوا السلاح من العساكر بشربة ميه. بدأ الدم يغلي في رأس عودة، فاندفع ..

***

(أوبا) .. خبطت يدي على قورتي، هذا ما نسيته تماما، حينما قابلـت عودة، كان يقدم أوراقه في قسم الفلسفة، بينما كنت أجهز لاستلام شهادتي من قسم التاريخ. كان عليّ أن أنقل له تجربتي مع مـثل هذه المواقف، إلا أنني، ولسبب لا أعرفه، نسيت. ومن هذا الـذي نسـيته أن أقول له مثلا: احلق لحيتك وقصر شعر رأسك، فاللحية عند المصريين وساخة، بينما الشعر الطويل خنافس.

ولكـن هل نسيت بالفعل أم أعجبتني لحيته وشعره فتناسيت.. لا داعـي الآن لأن أتذكـر، فأنا خايف أن يستعير عودة تصرف عسـاف في موقف مشابه، وخوفي مرده أن عساف حين تصرف بذلـك الشكل كان المطرح واسعا، بينما المطرح الواقف فيه عودة ضيقا جدا.

كـان عـودة وعساف، يسطوان على (ياميت)، وأظنك لابد تعرف أن اليهود قبل أن يرحلوا دمروها بالديناميت، وأبقوا المعبد، فأوقفـت الحكومة المصرية حراسا عليه. يرشوان الصول المكلف

بالحراســة، يدخـــلان ويفكان المواسير والبلاط منه، ويحملانها ع الحمير، ويبيعانها.

المكان يطرقه السياح، جاء واحد منهم يبدو أنه (كلاس) مما جعـــل عساف يأخذ منه موقفا مسبقا، فوق اشتهائه الأكيد لمؤخرة امرأة الرجل، وبالفعل كانت لامرأته مؤخرة رائعة.

الموقـــف كلـــه علـــى بعضه، ضاغط على الأعصاب. هما يمارســـان عملية سطو، بينما الرجل يتسيح، والذي زاد الطين بلة أنـــه لـــم يكـــن موفقا، في احتكاكه معهم فقد بدأ: انتو اللي ختوا الســـلاح م العساكر في سبعة وستين. وهنا انتفخ العرق، في رقبة عســـاف، شـــوح بيديه عاليًا، واتجه ناحية الرجل: كم شربة ميه، بيشـــربها الواحـــد لحـــد مايوصل لقناة السويس.. ذهل الرجل.. وعســـاف يواصـــل خطواته نحوه. انا اقول لك.. ثلاث شربات.. الشـــربة الأولانـــية بـــناخذ سلاحه، الشربة الثانية بنقلعه هدومه، الشـــربة التالـــتة..هنا صار عساف عند الرجل تماما: بنيكه.. قال وتـــناول النظارة الفخمة جدا، من فوق عيني الرجل وأردف: ولو مسكتك هني ثاني هنيكك أنت كمان..

***

الحمـــد لله.. فقـــد خيب عودة ظني، حين أدرك ضيق المكان الواقف فيه، فتصرف بشكل أذهلني. مثلا لو كان شخص ما تعود أن يـــترك قومه فترة من الزمن في وقت معين من السنة. وحين شـــارف الـــرجل علـــى الأربعيـــن، عاد إلى قومه وقال: جاءني جبرائيل وأخبرني أني مبعوث لكم من السماء. ماذا سيقول القوم؟:

أنت كاذب. أنت مجنون. أنت أفاق ودجال.. ألم يجد الله أحدا كي يرسله لنا غيرك؟.. وهكذا الخ. كيف سيرد الرجل في هذه الحالة؟. هم غارقون في التفاصيل، وهو بالتأكيد أذكى منهم وخياله أوسع من خيالهم، وإلا لما قال أنا نبي. سيحاول أن يصّاعد بالجدال، بقدر تستوعبه عقولهم، سيقول مثلا: تعالوا نعبد الله ولا نشرك به أحدا.

سيضج المكان بزعيقهم معترضين على كلامه. هذا عن تصرف الرجل الذي قال أنا نبي، وعن رد فعل قومه. فكيف تصرف عودة في المدرج حين قال له الأستاذ أنتو ختوا السلاح منا ف سبعة وستين بشربة ميه؟ .. قال: سيادتك (عندما قال سيادتك رفعت إصبعي الإبهام، لأني تأكدت تماما بأن عودة عرف أصول الحوار) بتقول أن البدو هم الذين أخذوا منكم السلاح في سيناء. ثم صمت للحظة.. كان يرتجف. (وهنا بالضبط كاد أن يستعير فعل عساف). لولا أن لحظة الصمت ساعدته على ضبط أعصابه. فقال: الذي أدى لهزيمة سبعة وستين ليس البدو على كل حال.. الذي سبب الهزيمة في سبعة وستين هو خوف جندي مكلف بحراسة قائد من إيقاظه، حين وصلته الإشارة من مركز القيادة العربية الموحدة بالأردن، بأن اليهود هاجموا، خاف الجندي، وفضل الانتظار حتى يصحو القائد من نفسه.

كان يعتقد أنه بهذه الحكاية الصغيرة، قد اختصر حكاية الحرب كلها، وأن صدى كلامه لابد سيكون جيدا، على الأقل من قبل زملائه الطلاب، ولكن رد الفعل فاجأه، فما أن أتم الجملة،

حـــتى امــتلأت القاعة بالضجيج، والعبارات المعترضة بلا نظام. كـــان يـــريد أن يتم حديثه عن البانغو، ولكن الأستاذ زجره وأمره بالجلوس.

خـــرج مـــن القاعة، يحس بأن رأسه يغلي، وجسده يرتجف. اســتقبلته زُهــرة، سألته عما به. أخبرها بما حدث. عضت على إصـــبعها، ثم نفضت يدها وهي تردد: أنت مجنون؟. وصل حميد وأمســكه من رسغ يده اليسرى، فآلمه جرير الساعة في معصمه، كان حميد يشده، وهو يحاول أن يبعد جرير الساعة عن ضغط يد حميد.. وحين ابتعدا همس له: دير بالك يا عودة.

***

لمـــاذا ضـــج الطلاب من رد عودة؟. عودة قال كلاما يُرجع ســـبب الهزيمة إلى الحالة التي سماها، حمدان أبو كايد في سطور سابقة: الخوف.

ورغم أن الناس على الرصيف يعرفون أن الخوف (بالأحرى عـــدم رد فرعون) سبب كل البلاوي، إلا أن الطلاب وأستاذهم لم يتحملوها حين قالها عودة، تماما مثلما لم يتحمل القوم رجلهم حين قال تعالوا نعبد الله. في الحالتين لا أحد اعترض على الفكرة، وفي الحالتين كان الاعتراض على كينونة قائلها.

ربمـــا لو كنت أنت مكان الطلاب وأستاذهم لسألت: كيف يتم التخلص من حالة الخوف؟. لا تقلق سأتركك تجاوب بنفسك (ليس فقط لأني أشعر أنك تضع أسئلتك في دربي مثل القنابل، فأنا قادر

علـــى تـــركك تـــنزع شـــوكك بـــيديك) ولكن لأن عندي تجربة سأعرضها ربما تساعدك وأنت تنزع ذلك الشوك.

الله قام بعملية تفكيك للخوف من قلوب ناس ما، في لحظة ما، مـــن لحظـــات الـــتاريخ. كـــيف؟. سحب اليهود من تحت عباءة الفرعون، وتركهم يتيهون في سيناء أربعين عاما. لماذا أربعين؟. حـــتى يموت الجيل الذي رُبيَّ على عبادة فرعون وينشأ، في تلك الصحراء، جيل جديد يذوق طعم غيرها.

أنت سألت وأنا قلت ما عندي. أجب الآن على سؤالك بنفسك. أمـــا أنا فسأستغل هذه اللحظات لأقول: إني اعتقدت أن جدل عودة لـــن يفضـــي بـــه لهذه المنطقة التي أراه غرق فيها، ولكن ولأن الأمـــور أعمـــق مما تخيلت، فأنا سأتقدم لأقربائي البدو، بنصيحة أراها هامة جدا، فإن كنت بدويا ومن سيناء، فبإمكانك قراءتها، أما إن لـــم تكن، وهذا بالتأكيد أفضل لك، فارمها وراء ظهرك واقفز مباشرة إلى ما يليها:

ليكـــن في ذهنك أن "راعي الغنم نجس عند المصريين". ومن ثـــم حاول قدر المستطاع، أن لا تتنطط، كما تفعل في الصحراء، بـــبداوتك. عطفـــا علـــى ذلك التنطيط، أريد أن أذكرك، أن بدويا مـــثلك، كان ذلك منذ أكثر من أربعة آلاف عام، هو يوسف عليه السلام، ولكي يَنفذُ في المنظومة، تماهى تماهيا مطلقا مع السيستم، للدرجـــة التي جعلته يستخدم واسطة، كي يصل الى الفرعون. لا تقـــل ولكن الله جازاه على هذه الفعلة، بأن تركه يمكث في السجن بضع سنين أخرى، فالله جازاه لأنه نبي، أما أنت فلن يجازيك الله

مطلقـــا، لأنه أبدا لن يحولك نبيّا، حتى لو رعيت الغنم أربعة عشر عاما في طور سيناء، لا سبعة فقط مثلما فعل موسى.

***

كان عودة متضايقا بينما زُهرة وحميد يقتادانه إلى الكافتيريا، طلـــب شـــايا ثـــم ولـــج إلى الحمامات، وضع كفيه تحت الحنفية وملأهمـــا ورشق وجهه، ورغم أنهما حاولا أن يخفيا عنه القناعة التـــي تولدت لديهما، بأن رسوبه صار أكيدا في هذه المادة، إلا أن قناعـــتهما لـــم تخف عليه، إذ صار واضحا له، انه لن ينجح أبدا فـــيها، وفي داخله كان القرار واضحا: إذا رسب سيترك الجامعة بلا رجعة.

كانـــت زُهرة ضجرة من تصرفه، وكان هو متألما لضجرها، مـــا آلمـــه أكثر، محاولتها المكشوفة مداراة ذلك، فقد أحس أن في هـــذه المـــداراة شعورا بالشفقة، يصحبه إحساس بأنه كانت تنقصه لـــياقة أهـــل المدينة. وشعور شخص ما بالشفقة نحوه، خاصة لو كانت امرأة، يذكره باليتم ويشعره بالضعف، وهما إحساسان يعيش حالة صراع للهرب منهما.

يشـــعر بـــأن ثمـــة شـــيء يـــربطه بزُهرة. فهي ولدت في الإســـماعيلية، أبوهـــا كان يعمل مدرسا في ليبيا، اشترى في هذه المديـــنة الواقعـــة على الضفة الغربية لقناة السويس، قطعة أرض وبـــنى عليها بيتا، مواجها اعتراضات زوجته القاهرية بقوله: هذه المدينة حديثة والأرض فيها رخيصة. ترد المرأة: استثمار يعني.. فيهز رأسه موافقا، ويتمتم: كي أكون قريبا من آسيا.

اشـــترط الـــيهود، لفك الاشتباك بعد حرب أكتوبر، أن يعود ســـكان مـــدن القنال الثلاث، التي هجرها سكانها على أثر حرب الأيـــام الســـتة، وكان سكان هذه المدن سعداء بالعودة إلى بيوتهم، بعـــد ســـنوات الشـــتات التي قضوها في وسط الفلاحين، هؤلاء الفلاحـــون الذيـــن كانوا يعيرونهم على الدوام بكونهم غلوا عليهم سعر الملح.

عملية إعادة الإعمار تمت بدولارات دويلات البترول، بعد أن دفعـــتها أمـــريكا إلى هذه العملية دفعا، فصارت هذه المدن تغري بالســـكنى والاســـتثمار. لـــم يـــبذل أبوها جهدا كبير لإقناع أمها بالموافقـــة، وإن كانت تمصمص شفتيها وتقول: بس مصر أحسن يا عبرحمان..

كـــان عـــبد الرحمـــن طفـــلا حين النكبة، يعيش وأسرته في صـــحراء النقب، قرب بئر السبع، وحين تدخلت الجيوش العربية فـــي فلســـطين، أراد الملـــك فاروق أن يستولي على صحراء بئر الســـبع، كـــي يعطـــيها للإنكلـــيز، ليقيموا عليها قواعد، بدلا من قواعدهم، التي على الضفة الغربية لقناة السويس.

تقدم جيش الملك في صحراء النقب، ولأن الرياح أحيانا تأتي علـــى غـــير رغـــبة القباطـــنة، اشتبك الجيش المتقدم مع اليهود، واضـــطر سريعا للتراجع، بعد أن جرح بعض رجاله، وكان من بيـــن هـــؤلاء الرجال الجرحى، ضابطا صغيرا زحف على بطنه، حـــتى وصـــل خيمة وضاح المجاورة. فوجىء وضاح بالجريح، وأمســـك بفرشـــاة القهوة ومسح بقاياها من حواف الهون، وضعها

علـــى الجرح ثم أحكم الرباط فوقه، وخلع جلبابه واكتفى بسروال طويل وفانلة، وألبس الضابط الجلباب، بعد أن فك البزة العسكرية عن جسده ولفها، ثم دفنها جوار البيت.

فـــي الصـــباح جابت دورية اليهود البيوت، بحثا عن الجنود الفارين، توجس الضابط الجريح، توقف الجيب وهم متحلقون حول الـــنار، نـــزل منه جنديان، يدلي أولهما مسدسه على جنبه، بينما يتوشـــح الآخر بندقية من طراز عوزي، انتصب الأب على قدميه وهو يردد: يا مرحب. تفضلوا.

أخـــذ العســـكريان موقعهمـــا، بيـــن الرجال المتحلقين، حول جمـــيرات النار، المدفوس في طرفها بكرج القهوة، بينما وضاح يرفع غطاء البكرج ويسكب حبات الهال فيه، قام واحد من أولاده وشـــطف الفناجيـــن. صبّ وضاح لنفسه فنجانا شربه مرة واحدة، كانـــت القهوة سوداء، مرّة وشهية. صبّ للجنديين، الأول لم يسغ مـــرارة القهوة، أما الآخر فشرب فنجانه في جرعة واحدة، ثم مده نحـــو الـــرجل. صـــبّ فنجانا ثانيا له، شربه بنفس الطريقة، هز مؤخـــرة الفنجال وناوله للشيخ وهو يردد: عمار. عرف الشيخ أنه القائد.

أشار العسكري بإصبعه نحو أولاده بالتتابع سائلا: هذا ابنك، مـــا اســـمه؟. كان يسأل والشيخ يجيبه، حتى وصل إلى الضابط، أشـــار نحـــوه، ثـــم نظر في عيني الشيخ مليا، قبل أن يقول: هذا مصـــري؟ لـــم يهـــتز وضاح، ظل رابط الجأش، نظر إلى محدثه مبتســـما: هـــذا ولـــيدي ســـالم .. سالم هذا، ينصرك ربي، طالع

لخوالــه.. ثــرا يا خوي أمه مصرية. قام العسكري، فتبعه رفيقه، ســلما ثــم مضيا نحو الجيب، وقبل أن يجلس وراء المقود، التفت إلــى الشيخ: إن رأيت مصريين أخبرنا. ثم أدار المحرك ومضى مبتعدا.

التفــت وضـــاح إلــى أولاده، الذين بدأوا يستعدون للتحرك، فســكنوا في أماكنهم. قال مخاطبا أكبرهم، تراه صدقني. هز الابن رأسه نافيا. فقال واحدا من الأولاد: أظن انك ما كذبت. ثم أردف: هذا المصري من جيل أولادك، وبريدة الله انه سالم.

***

بعــد أن خفت جروح العسكري، وقبل أن يرحل دسّ في يد وضـــاح ورقـــة. و لكــن كيف حولت ورقة صغيرة مستقبل هذه الأســـرة؟ لدرجة أن تقابلنا، ونحن نتعقب آثار عودة، زُهرة حفيدة ذلك الرجل، توزع المنشورات في جامعة القاهرة.

لهذا قصة طويلة، سأختصرها، مستعينا بالمثل الشائع "الطويل يتعــبك والقصـــير يشقيك" متغاضيا عن الإيحاءات الجنسية التي يحملهـــا. بعــد خمـــس سنوات، سيكون وضاح بين أولئك الذين هـــاجمهم شـــارون سنة **1953**. فرّ الناجون وكان وضاح، الذي استضـــاف الضــــابط المصري، وأبناؤه من بين الفارين. أسكنتهم الحكومـــة المصـــرية على الحافة الشرقية للحدود، في بطن جبل شاهق، والدوريات الإسرائيلية ترشم الحدود أمامهم كل ساعة.

ذهـــب الرجل، إلى بلدة نخل، يجر جديا. باعه، وحين أخرج محفظـــة الجلـــد، ليضع ثمنه، رأى الورقة، وقرر أن يلقي بما لا

يعرف، ويحتفظ بما يعرف، وسيكون الملقى حتما، هو الورقة، لا المال. ولكن، وقبل أن يرميها، جاءه خاطر، جعله يضع المال في المحفظة، ويبقي الورقة في يده.

قلـــب وجهــــه يمينا وشمالا، رأى بائعا واقفا وراء طاولة من الخشـــب، في واجهة دكانه، ناوله الورقة، وطلب منه أن يقرأها. نظـــر البائع فيها، ثم التفت إليه: هذي فيها رقم تلفون، وفيها اسم وعنوان.. ايش هو الاسم. سأل وضاح. وما أن نطق البائع، حتى تذكر ذلك الضابط.

***

قفز عبد الناصر على السلطة سنة **1952**، فتغيرت الخريطة الاجتماعـــية لمصــــر، تراجعت طبقات وتقدمت أخرى. ومن بين الذيـــن تراجعوا طبقة الباشاوات، وعلى رأسها مصطفى النحاس، الـــذي رأى أن العســـكر مـــثل الدبابة الصاعدة جبلا، وعلى الكل الابـــتعاد عنها، لأنها ستفرم من يقف في طريق صعودها، وحين تصـــل القمـــة ستقع وتدشدش لوحدها، وكان ذلك الضابط من بين الذين أفسح لهم الباشاوات طريق الصعود.

***

طلـــب الـــبائع النمرة. مين؟ سأل الضابط. عندي رجل يريد يحدثـــك. اسمه ايه؟. وضاح. خليه واقف عندك، إن مشي هدخلك السجن. ظل الرجل واقفا أمام الدكان، بينما البائع يرتجف. اتصل الضابط بأقرب ثكنة إلى المكان، وأمر بإحضار الرجل وأولاده.

حيـــن وصل الجيب للدكان، سأل الضابط الجالس إلى جوار السـائق: فيـن الراجل اللي اسمو وضاح؟. أنا يا بيه. رد. اركب معانـا. وحين ركب، سألوه: العشة بتاعتك فين. ورغم أن وصف بيـته بالعشـة ضايقه، أخبرهم بمكانها. حين وصلوها ضموا إليه باقي أسرته، وانطلقوا.

حيـن وصلوا مصر، أبقوا الأسرة راكبة في الجيب، وأدخلوه علـى الضابط؛ فأمر العساكر أن يأخذوه لواحد من القصور، التي اسـتولى عليها العسكر وضموها لمؤسسات الدولة، وعينه غفيرا عليه. أقام وضاح عشة لأسرته في الخلاء القريب من القصر، ثم بدأ في التحويط على الخلاء، حتى استولى عليه بطريقة وضع اليد التي هو خبير بها.

دخـل عـبد الرحمان المدرسة، وبعد ستة عشر عاما، تخرج من كلية التربية الرياضية، ثم سافر إلى ليبيا وعمل مدرسًا هناك. سـلمته الحكومـة الليبية بيتـا مجهزًا، ولم يمر وقت طويل حتى سـئم الشقة المكيفة، وحن لخيمة في العراء؛ فالتحق بحركة فتح، وترقى في صفوفها سريعا حتى سار من قادة فرعها في ليبيا.

فجـر يـوم ما طُرق باب شقته، وبعد ما فتح الباب، لم يعد لفراشـه أبـدًا. بحثـت زوجته عنه في كل مكان، ذهبت لقارئ الـورق، فأخبرها إن زوجها موجود في مكان ما تحت الأرض. فذهبت للعقيد القذافي تشتكي، وعدها بأن يعيده. ظلت تنتظر، حتى بعث أبوها، من مصر، جوابا يطالبها بالعودة، فعادت تحمل زُهرة في حضنها.

***

ثمة من أطلّ برأسه، بين سطور هذا النص، مرات عدة، لكنه فـــي كل مرة يعود ليختفي. مرة قلنا إنه الشايب وأخرى جد عودة و... لكـــن لو أخذنا كل هذه الأوصاف ونزلنا بها إلى الناس الذين يعيشـــون حـــول هـــذا الســـرد، لن نجد واحدا يشير بإصبعه نحو الـــرجل، لا لعيب، لَخَبْط ذواكر الناس، مثل الفيروس، ولكن لأن استراتيجية بحثنا واسعة جدا. فمئات الناس أجداد لمئات العودات، ومـــئات مـــن الـــناس شيّاب، فأي شايب منهم وأي جد هذا الذي نريده؟ سأجيب ولكن بعد هذه الحكاية:

كـــان الجنرالان، موشيه دايان وارئيل شارون، في الطائرة، حين أشار دايان بإصبعه على المنطقة وقال: ما كان الأمر ليكون أســـوأ لـــو لـــم يكن هنا عرب، ولو كان الوضع بيدنا لعملنا على تسييج المنطقة. لاشك أنك ستسأل أي منطقة هذه التي أشار عليها دايان؟ سأقول لك ولكن بعد أن أجيب على سؤال ينبض في عقلي كالشريان: بأي إصبع من أصابع يديه أشار دايان؟.

لأن غالبـــية البشـــر يستخدمون أيديهم اليمنى، وهذا لا يعني بالمرة تقليلا من شأن مستخدمي اليسرى، سأفترض أن الجنرالات ينـــتمون للغالبـــية، ومن ثم سأزيح اليد اليسرى جانبا، وأرفع اليد اليمـــنى أمـــام عينـــيَ، ثم أتخيل الإصبع الذي أشار به الجنرال، بالتأكـــيد لم يستخدم الإصبعين الخنصر والبنصر، لصعوبة التعامل بهمـــا(جرب بنفسك لكي تتأكد). ولن يستخدم الإبهام.. لماذا؟ لأنه، وإن كـــان يحب رفع الإبهام إلى أعلى، لأنها علامة النصر، فأنه

سيشـــير إلـــى السماء، ودايان يريد الأرض، أما إن أشار به إلى الأســفل، فهــذه علامـــة الهزيمة، والجنرالات لا يطيقون مجرد تذكرها.

ومـــن ثـــم فسينحسر بحثنا في الإصبعين السبابة والوسطى، فايهمـــا أســتخدم دايان ؟.. من الصعب عليّ تخيل جنرال يستخدم إصبعه السبابة، ليس لأن البشر العاديين يستخدمونه فحسب، ولكن لأنه أصغر من الثاني، والجنرالات يميلون دائما نحو الأكبر، لذلك فدايان بالتأكيد استخدم إصبعه الوسطى.

بعـــد أن اتفقـــنا أن دايـــان اســـتخدم إصبعه الوسطى، أعود لسؤالك، أي منطقة التي أشار نحوها؟ المنطقة هي مضارب قبيلة ارميلات، التي ننتمي إليها أنا وعودة، وهي تمتد ملتصقة بالحدود الشـــرقية لســـيناء، عـــند التقاء البحر بالصحراء، ولكن لماذا هذه المنطقة بالتحديد؟ لأنها المدخل إلى "صحن سيناء" والجنرال يريده أن يكـــون ســـالكا أمامه في أي وقت. ظل سؤال واحد ونقفل هذا الملـــف نهائـــيا، لماذا لم يأمر دايان، وهو وزير الدفاع، مرؤوسه الجـــنرال شارون، وهو قائد المنطقة الجنوبية، التي تقع المضارب تحت إمرته، بإخلاء المنطقة من العرب مباشرة؟.. لأن دايان يريد أن يـــبدو عسكريا نبيلا مهتما بالآثار وكلاسيكيات الموسيقى، ومن ثم فهو لا يريد أن ينكشف تاريخه ملوثا بترحيل بدو وما شابه.

رحلـــت القبيلة إلى نفس المكان، وفي نفس اليوم، الذي حدده جـــيش الدفاع، بعد عيد الأضحى بثلاثة أيام، بعد أن باعوا غنمهم لأن المـــنطقة التـــي خصصـــها الجيش لهم ليس لها مراع، وكان

الوحيد الذي بقي من القبيلة، وصمم على عدم الرحيل، هو الرجل الــذي يسمونه أبو الجدايل (وحين أطل علينا في السرد سميناه جد عــودة مــرات والشــايب مــرات أخرى و ...). والتسمية (أبو الجدايــل) عائدة لكونه لم يقص جديلتيه أبدا، حتى حينما طلبوا منه قصــهما، عندما صوروه لعمل هوية، أيام عبد الناصر، رغم كل الــتريقة التــي كالها له الضابط، المسئول عن استخراج الهويات، يومئذ.

العجيــب فــي الموضوع أن السلطات الإسرائيلية، لم تبد أي انزعاج من عدم رحيل أبو الجدايل. فقط جاء به الحاكم العسكري، وبعد أن قدم له فنجان قهوة، ناوله ورقة:

- وقع ع الورقة هذي..
- وش ف هالورقــة.. انــا يــا وليدي لا بعرف اقرا ولا اكتب..
- وريقــة يــا شيخ. وقع بس. وقع عليها انك متصالح مع الدولة.
- ومــن اللــي قــال لــك إن انا ما انا متصالح مع دولة اسرائيل.
- ابصم ذنّي.
- ولا آني باصم. انا مصالح وخلاص.
- قل انك ما أنت مريد تصالح الدولة.

- لا.لا يـا وليدي، انا مصالح الدولة. بس انا رجل بديوي. لا بعـرف القراية ولا بعرف الكتابة، بعرف راعي البيت، إن كان ودك جبت لك راعي بيت يكفل إني مصالح .

- إحنا دولة، وبنتعامل بالورق.

- انتوا دولة.. انا ما آني دولة.

- لمّـا مـا أنت مريد تصالح الدولة.. ليش جيت ذنّي. قال الحاكم ضاحكا.

- جاني الجيش وقال لي الحاكم وده ياك. لبيت، واسوي لك اللي انا اقدر عليه. أما صلح الدولة، هذا شي ما لي خُصة به، ما هـو انـا اللي يصالح دولة اسرابيل، ولا يغاضبها. ولكن تدري، اقول لك، من جدك أنت تريد اللي يصالح دولة اسرابيل.

- نعم. قال الحاكم بفضول.

- اللـي قادريـن يصـالحوا دولة اسرابيل هم اثنين ما لهم ثالث.. حافظ الأسد في الشام.. وأنور السادات في مصر.

ولكـن.. لمـاذا يشـغل الحاكم رأسه بمصالحة أبو الجدايل للدولـة؟. تقـوم الاستراتيجية الإسرائيلية على فكرة بسيطة، هذه الفكرة تقول أن الأرض هي أرض إسرائيل، أما ما فوقها فهو ملك للعـرب نتيجة عيشهم عليها أكثر من ألفي سنة، ومن ثم فآخر ما للعربـي عـند الدولـة هو التعويض، يستلم الشيك ثم يغادر لحال سبيله.

أبـو الجدايـل لـم يـرفض الشيك، لأنه كشف استراتيجية إسرائيل، فهذا آخر ما يفكر فيه، ولكن لأن ثمة سبب لعدم رحيله،

ومـــن ثـــم عدم مصالحته للدولة واستلام الشيك، ظن أنه دسه في نفسه، وقدر على إخفاءه عن الحاكم، وهو رغبته في إكثار غنمه، ليستخدمها مهر لزواج حفيده عودة بعد سنوات.

والحـــاكم الذي قرأ ما في رأس أبو الجدايل، لم يصرفه كرما أو رجولـــة، ولكن لأن فكرة بسيطة قفزت إلى ذهنه. الرحيل عن الأرض، هو مطلب الحاكم من أبو الجدايل، والغنم هي التي تبقي أبـــو الجدايـــل ملتصـــقا بهـــا، فلمـــاذا لا يطلق عليه اللصوص، واللصوص عرب، ومن ذقن أبو الجدايل فتل له.

***

أنـــا أحببـــت غاليت، وغاليت تزوجت عودة، وزُهرة أحبت عودة، وتزوجها حميد، معادلة شرق أوسطية بامتياز، لم تنتج منها حتى غاليت، ولكن الذي يهمنا من هذه المعادلة هو شخصياتها:

- ربـــيع: تقمصت حالة الحصيني، في المثل البدوي، إذ ظل الثعلـــب، يحـــاول الوصول إلى شرش العنب المتدلي من الكرمة، وحين عجز، لف ذيله ورحل وهو يقول: اللهم اقطع نصيبنا منه.

- زُهـــرة: تقدم حميد لخطبتها، فسألته أمها: يا ابني أنت من فيـــن؟. أنـــا م اليمـــن.. رد، ولأنها لا تعرف كلمة (اليمن) غير مـــربوطة بـــ (حربة) فقد خبطت يدها على صدرها، والتفتت نحو ابنـــتها: إحنا نطلع من حربة الفلسطينيين اللي راح فيها أبوك على حـــربة اليمـــن. دا الوقت مافيش حرب في اليمن ياماما، الحرب كانـــت في الستينات. ردت زُهرة. ماعرفش ستينات من سبعينات. اليمن دي لأ.. يعني لأ.. قالت أمها بحسم.

– حمـــيد: بالرغم من كونه مؤلما له، أن لا تعرف أم زُهرة عــن بلده غير حرب اليمن، إلا أنه تصرف حسب مقتضي الحال، قـــال لأم زُهرة سأتزوج وأعيش في مصر، وبعد أن كتب الكتاب تــناول زُهــرة من يدها، وركب تاكسي إلى المطار، ومن هناك بالطائرة إلى تعز..

– غاليت: في اتفاقية الحدود، بين مصر والشام، التي خطها الضـــباط الإنكليز والعثمانيين سنة **1906**، ورد في المادة رقم **8** ما مفاده: أن يبقى عربان الجهتين على ما كانوا عليه. والذي كان عليه عربان الجهتين هو التنقل بحرية من هذه الجهة إلى تلك.

وفي اتفاقية كامب ديفيد استند الإسرائيليون على تلك المادة فـــي اتفـــاقهم مـــع المصريين، فصار لمواطنيهم الحق أن يتنقلوا بالهويـــة الشخصـــية في سيناء حتى شرم الشيخ، وللبدو في سيناء نفـــس الحق في الانتقال إلى الناحية الأخرى بذات الطريقة، فنفذت الحكومة المصرية اتفاقها مع الإسرائيليين، ومنعته عن البدو.

وبمـــا أن غاليت كانت في إسرائيل، قبل أن تجتاز معبر طابا إلـــى ســـيناء، فهـــي والحالـــة كذلك ضيفة إسرائيل، ولأن ضيف المضارب له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات، لم يكن مسموحا لها أن تتجاوز شرم الشيخ غربا.

– عـــودة: حيـــن اتفـــق مع غاليت على الزواج، واجهتهم مشـــكلة، فلكـــي يتزوجا زواجًا رسميا لابد من توثيقه من السفارة الرومانـــية في القاهرة، وبطاقة دخولها لا تسمح لها بالسفر بوصة

واحدة غرب شرم الشيخ، ذهبا إلى مكتب أحد المحامين في نويبع، ووكلاه في توثيق العقد من السفارة نيابة عنهما.

ولأن المحامي عميل لأجهزة الأمن، فقد بلغ على الفور، وقبل أن يتخذ عودة وغاليت مكانيهما بيننا، رأينا الرجال بلباسهم المدني هابطيــن إلى الكامب، قال عساف: الضابط والمخبرين. مرعوبين انتصــبنا نحن البدو واقفين، وبطاقاتنا في أيدينا. وصلوا، فلم ألحق أن أطلــب مــن غاليت أن تتعرى، حتى أجد منطقة أنفذ منها في أعصاب الضابط. قلبوا بطاقاتنا، ثم اقتادوا عودة ومضوا.

***

ثمــة مــا تلتقي عنده كثير من الوظائف: مثلا عميل الأجهزة الأمنية والصحفي في صحيفة صفراء. الصحفي، والحالة تلك، لا يعتنــي بالخبر ولا بالتعليق عليه، كما يفعل الصحفيون في الجرايد المحترمة، بل بالإثارة التي يعكسها الخبر، وعميل الأمن، لا يعتني بدقــة المعلومــة التي يُسر بها في أذن مستخدمه، بقدر ما يعتني بكمية الإثارة والغموض التي تحف بها.

ومــن ثــم وصلتْ المعلومة، من فم المحامي، إلى أُذن رجل الأمــن الصغير، القابع وراء مكتبه، في هذه القرية النائية: غاليت سائحة دخلت من معبر طابا(وهذا يعني أنها جاءت من إسرائيل)، عملــت نادلة في كامب، أصحاب الكامب بدو (...)، وفي فترات أجازاتها، تجوب بكاميرتها مضارب البدو. ورجل الأمن الصغير، أوصلها لرئيسه، بعد أن أضاف عليها بهارات أخرى من الإثارة. وهكــذا ظلــت المعلومة تصّاعد، من مسئول صغير إلى مسئول

أعلى، والبهارات تتزايد، فذهبت القضية الأصلية (زواج بين اثنين شاب بدوي يحلم بالخلاص، وشابة، هي سائحة رومانية، رأت في ذلك الشاب تحفة من العصور الوسطى) قبض الريح.

قــبل أن أرفع الغطاء عن سيارتي، عرفت أنها في وضع لا يطــاق، ركــنها فترة طويلة على الطريق الرئيسي، حملها بكمية هائلــة مــن التراب، لم أعتن بتنظيفها، جلست وراء المقود، كمية الغــبار على الزجاج تعيق الرؤيا، شددت غترتي من فوق رأسي، وأخرجــت يدي من الشباك ومسحته، صارت قذرة، فرميتها فوق الــتابلوه وأبقيــت رأسي عاريا. مررت أصابعي في شعر رأسي، كان طويلا وقذرا، رأيت وجهي، في المرآة المغبرة، شاحبا وذقني طويلــة وسيئة. قُدتُ سيارتي، صرتُ أكثر قناعة بلا جدوى ما أنا مُقــبل علــيه، قفز اسم عودة في رأسي مثلما يقفز الفيروس على شاشة الكمبيوتر "اقفل برامجك.. سأعيد تشغيل الجهاز بعد دقيقة". فــأحس أنني مثل حشرة تحت عجلة تراكتور. ثم أبدأ في إغلاق برامجي مستعجلا، والثواني تواصل تناقصها، أمامي على الشاشة، مــن **60** إلى صفر، أعقد يديّ على صدري مطيعا، كما أطاعت قبيلتــي الأمــر الصادر من فم شارون، بترحيلها من أرضها سنة **1970**.

مــثلما عالجت الفيروس، بتوزيع كل الملفات من القسم سي، إلى أقسام أخرى داخل الكمبيوتر، ثم مسحت الويندوز، وحملته من جديــد، فســوف أزيح كل ما أرويه جانبا، وأبقي على عودة فقط،

ليس بهدف مسحه، والحكي عن غيره، ولكن ليكف عن التقافز في رأسي مثل الجدي بعد أن يشبع من ضرع أمه.

ثمــة ما نتشابه فيه، أنا وعودة، ففضلا عن كوننا تماثلنا في شــهقة الهــواء الصحراوية الأولى، فإن أمي قطعت حبلي السري بحجريــن، بينما قطع جده سُرته بالسيف اعتقادا منه بأن هذا كفيل بجعلــه فارسًــا. فوق ذلك، كان لكل من اسمينا علاقة بالــفقير. كادت أمه أن تختار له اسما غير عودة الذي اختاره الفقير، ولكن خوفها من أن يأخذه ملك الموت، إن غيرت الاسم هو الذي ثناها. فــالذي زرع الرعب في صدرها، أنها وما إن تأملت وجهه، حتى تبينت الشبه بينه وبين وجه جدها عودة، والذي كان أعرجا، فظلت قلقة على قدميه من أن تكون واحدة منهما عرجاء.

***

جــف ريقي، فأوقفت سيارتي أمام كافتيريا بجوار المخفر. طلبــت شاياً، جاء رجل وجلس إلى جواري، تذكرته على الفور، هــو رجل أمن (مُخبر)، بعتُ امرأته قميص نوم، أيام كنت أعمل بائعا متجولا، ولما لفتت المرأة نظري لوظيفة زوجها، رفضتُ أن آخذ ثمن القميص، مكتفيا بالتعرف عليه.

أمســكتُ كوباية الشاي في يدي، وذهبت إليه، ذكرته بنفسي، وأخــبرته أن لــي قريبا مقبوضا عليه، همستُ له بأني مستعد أن أدفــع لفك أسره. وحين أتممتُ عبارتي، قال والعصافير تقفز من عينــيه: ايــه بقى حكاية قريبك دا يا سيدي؟ اتكأت بكوعيَ على الطاولــة، وحيــن صار وجهي قريبا من وجهه، أخذت أحكي له

القصـــة، لكـــنه ما أن سمع اسم عودة حتى اصفر لونه. عاد إلى الوراء وهمس لي: عودة دا أنساه خالص..

حيـــن عـــدتُ إلى الكامب، وأسررتُ لعساف بما سمعته من رجـــل الأمـــن، رأيتُ المسافة تضيق بين عينيه، قام واقفاً وصعد الجـــبل، لحظـــات ورايـــته عائدا وفي يده كلاشينكوف، استغربت مـــنظره متأبطاً سلاحاً، فوق أني لم أتخيل للحظة واحدة، أن يكون قد خبأ سلاحاً هنا.

لـــم أتوقـــع ماذا سيفعل، شهر السلاح في وجوهنا، وأمرنا جمـــيعاً بالوقوف. تلكأنا فأز الرصاص فوق رءوسنا، اعتقدتُ أن جـــنون أمـــه ركـــبه فقمت واقفا، تبعني توماس وغاليت، همّ بقية الأجانب بالوقوف، فزجرهم: خلك على ما انت عليه.

أمـــرنا أن نـــرفع أيدينا فوق رءوسنا، أطعنا صاغرين. أشار بفوهـــة بندقيته نحو توماس: هات كنبيوترك واركب الجمل. تناول تومـــاس، الـــذي تلبسه الرعب، اللاب توب واعتلى ظهر الجمل الـــبارك. ثـــم أمر غاليت أن تأخذ الكاميرا في يدها وتركب وراء تومـــاس. وضـــع رسن الجمل في يدي، وطالبني بالمضي، وسار وراءنا.

قـــدت الجمـــل نحو الإسفلت الرئيسي، كما أمرني، وصرت أخمـــن الـــذي ســـيفعله. سيخاف من عشيرتي إن هو أقدم على ذبحـــي، غاليـــت لن يذبحها من أجل عودة، والعلاقة التي تربطه بتوماس ستحمي توماس من إيذائه، ماذا سيفعل؟..

شعرت ببرودة فوهة الكلاشينكوف على رقبتي، فضممت يديّ كجناحيـــن على صدري، بينما غاليت المحشورة في الكابينة، بيني وبين توماس الذي يقبض على اللاب توب، ترتجف. رفعت كتفيّ بحيــث كادتـــا أن تداريا رقبتي، فلكزني عساف بماسورة البندقية وهو يأمرني من وراء اللثام: يللا.

كنـــت أنـــوي أن أسير إلى الأمام، ولكنه، وقد صار يحدثني بلكـــزات البندقـــية، دفـــع بفوهـــتها رقبتي نحو اليمين. تشاغلت بانحـــناءات الطريق الترابي والتواءاته والنبتات البرية الفقيرة على جانبيه، عن تخيل ماذا سيفعل بنا هذا المخلوق، المتمدد على بطنه في صندوق السيارة، واضعا فوهة بندقية بجوار أذني.

ســـرنا، والســـيارة تـــتقافز بنا مثل أرنب بري، طوال الليل. وحيـــن أشـــرقت الشمس، تبدى لنا جبل "طلعة البدن" حدست أنه سيأخذنا إليه. جلس توماس وغاليت عند سفح الجبل، واتكأ عساف إلـــى جوارهمـــا، مستندا على حجر. ألحت عليّ صورة أبو زيد؛ فحين أراد الخليفة العباسي أن يؤدب، الزناتي خليفة، حاكم تونس، أوحـــى للهلالية بأن تلك البلاد فيها الخير كله؛ ولا ضير عليهم لو استولوا عليها. أراد أبو زيد أن يستطلع تلك الأرض (أبي قال في ســـياق مشـــابه وهـــو يلوح بإصبعه السبابة راسماً قوس قزح في الهواء: القائد العظيم هو من يستطلع أرض العدو بنفسه). أخذ أبو زيـــد أبـــناء أخيه (وكانوا ثلاثة) وغادر المضارب، لا أحد يعرف إلـــى أين. في خلاء الله الخالي أناخوا أبلهم. تلفع أبو زيد بعباءته: أولاد أخـــوي قرصـــة وبكـــرج قهوة. طلب منهم واستلقى مغطياً

وجهـــه. بعد حوالي ربع ساعة، رفع العباءة عن رأسه، وقال وهو يدعـــيّ الفـــزع: وين القرصة وبكرج القهوة. ما لقينا حطب. قال أحدهم. ما لقينا ماء. رد الثاني. فرفع أبو زيد يده: ياللا بينا. ردهم لأبـــيهم. واستأذن أخته في أبنائها. وافقت الأخت بسرور. أخذهم (وكـــانوا أيضـــا ثلاثة: مرعي ويحيى ويونس) وفي نفس المكان أناخوا إبلهم. أولاد أختي قرصة وبكرج قهوة. قال أبو زيد ثم تلفع بعـــباءته واستلقى. بعد حوالي ربع ساعة أيقظه أبناء أخته: خال.. خـــال قـــم تغـــد وأشرب لك فنجال قهوة. عجز أولاد الأخ فردهم لأبـــيهم، أما أبناء الأخت فتصرفوا، من طرف الوثر نزعوا قليل مـــن الحشـــو وأوقـــدوا ناراً. وبحليب الناقة أعدوا القهوة وعجنوا الدقيق. وليس مهما أن (أبو زيد) سيعود، من تونس، بعد أن يهلك أبـــناء أخته، واحدا إثر الآخر. مرعي لدغه الثعبان، لمّا دلاه خاله في البئر ليملأ الدلاء. يونس كان يربط يده الجريحة بمنديل، حين لقـــى أبـــو زيد قطة؛ فرأى أن عينيها تشبهان عينيّ عليي حبيبته، طلـــب المنديل من يونس. فرد يونس بأنه خايف على جرحه من الالـــتهاب، طمأنـــه خالـــه، وأخـــذ المنديل. حجب أبو زيد القطة بالمنديل ولم يترك غير عينيها. ظل الالتهاب يزيد على يد مرعي حـــتى قتله، بينما خاله يتغزل في عينيّ القطة. ظل (أبو زيد) مع ابـــن أخـــته الثالث وحين اقتربا من تونس قال أبو زيد، الذي كان لونـــه أسودا كالفحمة، لأبن اخته الوسيم: ندخل المدينة أنت سيدي وأنا عبدك. ألقت شرطة الزناتي القبض عليهما، أودعتهما السجن؛ فنصب أبو زيد السيجة، وأخرج المخبأ في جرابه. قطع من الذهب

والفضة، أعطى لأبن أخته الذهب ولعب هو بالفضة. ما هذا الذي تلعبون به؟. سأل الحراس. حجارة من حجارة بلادنا. رد أبو زيد. في بلادكم تلعبون السيجة بهذه الحجارة!. سألوا. نعم. رد أبو زيد وأضـــاف: نســـتطيع أن نجـــيء لكم بالكثير مثلها. أطلقوه ليأتي بالذهـــب والفضة وأبقوا ابن أخته وديعة عندهم حتى يعود. غادر أبو زيد تونس بعد أن وعد الزناتي بألف مفرّع وألف مدرّع وألف عجان العجين. ما هذا الذي تقوله يا عبد؟ سأل الزناتي. إنها أنواع مـــن الحجارة في بلادنا. قال أبو زيد الذي لا يكذب أبداً. لم يغب طويـــلاً قـــبل أن يعـــود على رأس آلاف من المُدرعين وفاتحي صدورهم وآلاف مثلهم يعدون لهم الطعام.

قمـــتُ أقـــتلع الجاف من النبتات المتناثرة عند قدمي الجبل، وكومـــتها ثم فتحت التنك وأدخلت فيه خرطوما، وشفطت إلى أن مـــلأت جركـــنا من السولار، دلقت منه على الحطب وألقيت فوقه عود كبريت.

طلـــب عســـاف (الـــذي سرت أسميه في سري أبو زيد) من غاليـــت أن تقـــترب من النار وتتدفأ. وحين بدأ الدفء يسري في أوصـــالها، رفـــع البندقية نحوي، ثم ألقى إليّ بغترته: قم وكتفها. تناولتُ الغترة، وشبكت يديّ غاليت، التي امتلأت رعباً، وربطتهما وراء ظهرها.

كـــان عساف يدور حولنا ببندقيته، مثل ضبع يبحث عن نقطة ضـــعف فريســـته ليقضـــي عليها. أما غاليت فضمت فخذيها إلى بعضـــهما وقربتهما من صدرها. هات ورقة وقلم. قال. أحضرتُ

الورقـــة والقلم. اكتب.. ما أنا بكاتب.. (كدت أقول) ولكني خفت؛ فقلت ماذا أكتب. اكتب اللي اقوله لك بالإنكليزي.

بدأ يُملي، وأنا أترجم العربي الذي يمليه، ثم أكتبه بالإنكليزية. حُـط الورقة على ركبتيها. قال لي وأمر توماس أن يضبط كاميرا الفيديو عليها. وبينما توماس يقوم بضبط العدسة. زجرها عساف.. إقــرأي.. فقــرأت وهي تتلعثم: أنا غاليت. مصورة رومانية. قام الـــبدو فـــي ســـيناء بخطفـــي. لن يفكوا سراحي إلا بعد أن تقوم الحكومـــة المصـــرية بإطلاق سراح عودة بن سلمان. أنقذوني.. طـــريقة إنقاذي الوحيدة هي أن يتم إطلاق سراح عودة بن سلمان، المحجوز لدى الشرطة المصرية. غاليت ..

قمـــتُ وفككتُ يديها، وأرجعت الغترة لعساف الذي بدأ يراجع الفـــيلم، ثم وضع يده في جيب جلبابه وأخرج هاتفه الجوال، سحب مـــنه الكارت وألقى به إلى توماس: حطه في كنبيوترك.. وادخل ع النت.

وضـــع تومـــاس كارت الجوال في اللاب توب، وحين صار على النت، ربّع يديه منتظرا أوامر عساف، التفت عساف ناحيتي: قـــل له أنـــي أريد أن أسمع النداء على إذاعة البي بي سي. حمِّل الفيلم على موقعيّ (البي بي سي)، و(راديو مونت كارلو). قلت، وبعد أن صمتُ للحظة أضفتُ: وعلى موقع تلفزيون الجزيرة.

بـــدأتُ أفيق على وضعنا، فكرتُ في هذا الشاهق الذي وراء ظهـــري، لـــم يـــدر بخلد أجدادنا حين رأوه كبدن أنثوي يطلع من ثوبـــه، فســـموه طلعـــة البدن، أن عساف سيأتي بامرأة من نساء

الــروم، ويصـــورها عند سفحه، ويداها مربوطتان وراء ظهرها، على شريط فيديو، ويضعه على شبكة كمبيوترات عنكبوتية هائلة، ليضغط على الحكومة حتى تطلق سراح بدويّ مثله.

صـــحيح أن الحكومة المصرية ما أن تقوى في القاهرة، حتى تقبض بيدها الحديدية على سيناء، ولا شك أن أولئك الأجداد عانوا فـــي فترات القوة تلك، حيف تلك القبضة، وتحايلوا كالثعالب أحياناً لامتصاصـــها، ولكن إنترنت وكمبيوتر وبي بي سي.. هذا الذي لم أسمع به يا عساف..

تقلـــص الخوف بداخلي، وصرت أقل رهبة، فسألت عساف، الـــذي صار أقل إظهارا للعدوانية: لا يوجد عندنا أكل؟. فلم يجب واكتفى بضبط مؤشر الراديو على إذاعة البي بي سي وتقريبه من أذنه. وحين انتهى المذيع من قراءة النشرة دون أن يأتي على خبر غاليـــت، انتصـــب واقفـــاً، توجه نحو السيارة، فتح الباب، وجلس وراء المقود، وضع المفتاح.. وذهب دون أن يقول كلمة واحدة.

قـــال تومـــاس: نهرب. أين نهرب حتى نصل لأقرب بشر، نحـــتاج أكـــثر مـــن خمـــس ساعات. قلتُ. ماذا سيفعل بنا؟ سأل تومـــاس. لا شـــيء. أجبـــت وأنا أنظر إلى غاليت التي صارت عاجـــزة تمامـــا عن النطق. أتيت بالماء وسقيتها، ثم رششت على وجهها ورأسها.

بعـــد أقل من ساعة ونصف رأينا السيارة عائدة. هبط عساف وفي يد كيس بلاستيكي، وفي اليد الثانية جركن ماء، أكلنا وشربنا شـــايا وصـــرنا أقل خوفا، بينما قلق عساف يصّاعد. أخذ الراديو

وجلـــس في المكان الذي اختاره لنفسه، على حجر في سفح الجبل فـــوق رؤوســـنا بـــأقل من عشرة أمتار، ينظر إلى ساعته ويقلب الراديو بين محطتي البي بي سي ومونت كارلو.

سيناء- طلعة البدن/ فبراير 2005

المراجع:

1- الكتاب المقدس.
2- تاريخ سيناء/ نعوم بك شقير.
3- لورنس/ أنتوني ناتنج.
4- شارون قيصر إسرائيل/ عوزي بنزيمان